
بشرى زخاري ميخائيل
محمد رسول الله
هكذا بشرت به الأناجيل
الطبعة الثانية
الناشر
عالم الكتب
٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة
72-960807

بشرى زخاري ميخائيل
ليسانس فلسفة ـ جامعة عين شمس

محمد رسول الله

هكذا بشرت به الأناجيل

الطبعـــة الثانيـــة

الناشر


٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

تعريف بالكتاب

يقول الدكتور ميشيل الحائك الأستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس فى كتاب له بعنوان « المسيح أمام المسلمين » أن هناك فرضاً قاطعاً على عنق المسيحيين ، وهو أن يقبلوا على تفهم الدين الإسلامى بإخلاص لمعتقد الغير وانفتاح على ما بينه وبين المسيحيين من قربى وأنه لابد للمؤمنين بإله إبراهيم من أن يقفوا صفاً واحداً للدفاع عن قضية الإيمان التى هى قضية الإنسان .

انطلاقاً من هذا الاتجاه حاولت بإخلاص أن أقدم لغير المسلمين المبادىء التى تشتمل عليها العقيدة الإسلامية والتى تتفق فى جوهرها مع سائر العقائد التى سبقتها .

لقد استطاعت البشرية أن تتخلص من كثير من قيود العصور الوسطى ، عصور الجهالة والظلام الفكرى ، ولكن للأسف مازالت

دار الثقافة العربية للطباعة ت ٩١٦٧٧٢٤ عابدين

هناك بقايا لهذه القيود مازالت تعيش حتى يومنا هذا تتمثل فى هذه الحواجز المصطنعة ، وهذا التباعد المتعمد بين الديانتين المسيحية والإسلام .

لهذا جاء هذا الكتاب محاولة لكسر هذا الجمود ودعوة لغير المسلمين إلى البحث وتقصى الحقائق بدلا من تلقى هذه الحقائق من الأوائل بدون اقتناع شخصى .

بشرى زخارى

مقدمة

الإيمان بالله ورسله ، ومعاونة الناس بعضهم لبعض فى الخير ونبذ الشر ، والإيمان بالحياة الأخرى هو الأساس والجوهر والدعامة التى يرتكز عليها كل دين . وما دام الأمر كذلك جاز لنا أن نتساءل : كيف يمكن تعليل الإيمان برسالة دون سائر الرسالات،مع أن رسالات الأنبياء جميعاً تتفق فى هذه الأصول ؟

لقد حاولت بقدر استطاعتى أن أتلمس الأسباب العقلية التى تدفع بعض الناس إلى تفضيل الدين الذى يعتقدونه على سائر الأديان التى لا يعتقدونها ، ووجدت أن غاية ما عندهم من التعليل لهذا التفضيل هو أنهم يؤمنون بهذه العقيدة لأنها عقيدة نبيهم ، ولا يؤمنون بالعقائد الأخرى لأنها عقائد أنبياء آخرون لا يؤمنون بهم ولا يقولون لماذا ينكرونهم بعد إيمانهم بأمثالهم ، ولايستطيعون أن يردوا هذا الانكار إلى سبب معقول .

إن الوقت الذى كانت تنطوى فيه كل جماعة على ما عندها من أفكار وعلوم ومعتقدات تنكر كل ما يخالفها، وتعادى كل ما بعد عن دائرة معارفها، هذا الوقت قد ولى وأصبح لزاماً على كل متحضر ومثقف ومتعلم أن يختار لنفسه من بين هذه التعاليم هنا وهناك ما يراه أكثر صواباً وتحقيقاً لصلاح الإنسان وكماله، وفى رأيى أن المرء المثقف لا يمكن أن يحظى بإيمان حقيقى إلا بعد أن يعرف الحجج العقلية التى يدعم بها إيمانه، إذ ليس من الإيمان فى شىء مجرد التقليد والتصديق لما تقول به جمهرة الناس، والإذعان للتقاليد والتعاليم الموروثة بدون معرفة الدليل الذى يؤكد صحتها. ذلك أن العقيدة لا تكون عقيدة حتى تصدر عن اعتقاد، والإيمان لا يكون إيماناً حتى ينبع من القلب عن رضى خالص وطمأنينة صادقة.

ولئن كان « كنفوشيوس » قد قال قبل الميلاد بخمسماية عام « إنى لا أملك لك شيئاً إن كنت لا تستطيع أن تقول هذا رأيى » فإن الضمير فى عصر العقل خاصة يجعل من هذه العبارة نهجاً مقدساً، وهكذا رأيناه يدفع كل حكمة العصر إلى دعم هذا الحق الجليل، وهذا ما حدا بـ « مونتين » إلى أن يرفع صوته عالياً قائلا: علينا أن نفحص كل شىء وألا ندخل عقولنا شيئاً لمجرد أنه عرف مقرر. علينا ألا نعتنق مبادىء أرسطو والرواقيين أو الابيقوريين دون أن نفحصها ونختار منها، أن من يتبع الآخرين بغير هدى من تفكيره واقتناعه لا يتبع شيئاً ولا يعثر على شىء وإن الصدق والمنطق حق لكل إنسان وليس ملكا خاصاً لمن ينطق بهما لأول مرة، إنما هما لكل من يقدر عليهما.

« إن النحل يمتص الشهد من هذه الزهرة ومن تلك، ثم تخرج من بطونها شرابها هى . . . وشهدها هى ».

ولن يسود سلام على الأرض قبل أن يتعلم البشر كيف يتسامحون بعضهم تجاه بعض فى كل خلافاتهم السياسية والفلسفية والدينية ؟!

على ضوء هذا المبدأ حاولت بحث الموضوع آنف الذكر، فلم أجد سبباً عقلياً واحداً يدعونى إلى الإيمان ببعض الأنبياء دون بعضهم الآخر، وانتهيت إلى ما وجدت أنه حق وأنه صواب، وهو وجوب الإيمان بالرسل جميعاً. وكل ما أرجوه من القارىء هو أن يبدأ بتعمق دراسة وجهة النظر التى أقدمها له. ولست أغالى وأقول أنها وجهة نظر وحيدة، أو بأنها يقينية على وجه الإطلاق، وإنما هى تؤكد قناعتنا بفائدة طرح المشكلة على بساط البحث المتعمق النزيه. وأن وجهات النظر المختلفة لا تنجب فى لقاحها سوى النفع الثقافى واليقظة العقلية ما دام رائدها الأول والأخير استهداف الحقيقية أيا ما كان قائلها.

إن الحقيقة ضالة المؤمن، وهى ضالة الإنسان بوجه عام ولانحسب ضمائر البشر وعقولهم تلتقى فى ميدان أرفع من ميدان تحرى الحق وطلب الصواب، ولو بذل فى سبيل ذلك جهود مضنية. وقامت مناقشات حادة دائبة، قد تؤدى إلى الإخفاق فى بعض النقاط أحياناً، ولكنها لن تكون بوجه من الوجوه سبيل العبث والضلال.

خلاصة القول أن مبدأ الإيمان بالرسل عامة هو القصد من إصدار هذا الكتاب، وقد وجدت نفسى أعالج هذا الموضوع بروح المحاولة فى

لإبراز وحدة العقيدة وجوهرها بغض النظر عن الألوان الدينية المختلفة ، وإنما نظرت إلى القمم التى يتلاقى عليها اوغسطينوس وعلى بن أبى طالب وغاندى فلم أحفل بالسفوح والمقتطفات .

وفى رأيى أن هذا المبدأ — مبدأ الإيمان بالرسل جميعاً — لو أخذ به الناس بعد تفحص ودراسة نزيهة لما كانت هناك ضغائن وأحقاد ، ولما افترق أبناء الأمة الواحدة لاختلاف عقائدهم ، ولكن للأسف فإن أهل الأديان السماوية قد اختلفوا فيما يجب الاتفاق عليه ،وتنازعوا فيما يدعو الاتحاد إليه،وبذلك أصبحت الحياة بينهم عداء وتخالفاً ،وهذا لاشك له أثر بعيد فى حياتهم واجتماعاتهم ولو علموا حقيقة أمرهم وأن الله سبحانه وتعالى رب العالمين من مسلمين ومسيحيين ويهود ومجوس ومشركين ، وهو وحده الذى يفصل بينهم جميعاً بعدله يوم القيامة ، لو عرف الناس ذلك كله ، وأدركوا بعقول صحيحة وقلوب سليمة لأصبحوا جميعاً فى هذه الحياة إخواناً متحابين ، يضربون فى هذه الأرض متعاونين كل بسيعه طاهرة نفوسهم متحدة قلوبهم ، كما أمرت بذلك أديانهم ، باذلين جهودهم فيما يعود بالخير والنفع عليهم ، لكن للأسف فإن أهل الأديان قد اختلفوا — كما قلنا — فيما يجب الاتفاق عليه .

ذلك أن مبدأ الإيمان بالرسل عامة يختلف عند المسيحى عنه عند المسلم، فالمسيحى يؤمن بكل الرسل ، وبجميع الكتب من الله قبل المسيح ، ويؤمن بأن رسالة النبوة قد انتهت بالمسيح نفسه ، وبالتالى فليس ثمة مجال لديه للايمان بالاسلام عنده كدين منزل من الله ، وعلى العكس من ذلك يعترف المسلم بجميع الرسالات السابقة ، ويلزمه الإسلام بهذا

ديناً وعقيدة وسلوكا ، لا لمجرد التسامح أو المجاملة والمسالمة ، وبذلك قضى الإسلام على التعصب بين نفوس معتنقيه بالنسبة للأديان الأخرى ، بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك حينما وضع مقياساً واحدا للتقرب من الله واستحقاق ملكوته ، وأن ذلك المقياس يتلخص فى كلمتين:الإيمان، والعمل الصالح . فكل من آمن وعمل صالحاً فى هذه الدنيا فله أجره عند ربه سواء فى ذلك المسلم أو المسيحى أو اليهودى أو المتدين بأى دين من الأديان : إن الذين آمنوا أو الذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (سورة البقرة : ٦٣) .

وقد تكررت هذه الآية بنصها ومعناها أكثر من مرة حتى أصبحت بمثابة قاعدة أساسية من قواعد الدين الإسلامى ، قاعدة تعين وحدة الإيمان ووحدة العقيدة مهما تعددت الأسماء والسمات متى انتهت إلى إسلام النفس كلها لله ، إيماناً ينبثق عنه العمل الصالح فى الحياة :

والذى أود أن أقوله — ومعذرة للإطالة — هو أن الإسلام هنا على خلاف بقية الأديان لا يجعل مجرد الانتساب للدين وحده كافياً للنجاة ، بل يجعل النجاة مرتبط كل الارتباط بالإيمان والعمل الصالح بغض النظر عن الدين الذى ينتمى إليه المؤمن « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (الزلزلة ٧ — ٨) .

وتطبيقاً لذلك فإن أهل الكتاب هنا كالمسلمين سواء بسواء من يفعل منهم مثقال ذرة من الخير فإن الله يثيبه عليه ، ومن يفعل منهم مثقال ذرة من الشر فإن الله يجازيه عليه ، واقرءوا إن شئتم « من أهل

الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوه من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين » (آل عمران : (١١٣ — ١١٥)

مما تقدم يتبين لنا أن الأدلة على ضرورة الإيمان بالرسل جميعاً مساقه هنا إلى أولئك الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ، وينكرون البعض الآخر ، مع عجزهم — كما قلنا — عن إتيانهم بدليل واحد يؤكد أن الوحى كان من نصيب النبى الذى يعتقدونه دون سائر الأنبياء ، كما أن المنطق نفسه يحتم أن إثبات بعض النبوات وإنكار البعض الآخر هو هدم للعقيدة الدينية كلها أيا كانت من أساسها .

إن موقف الناس من الوحى يجب أن يكون واحدا مهما تكن الرسالة الموحى بها ، والرسول المبشر به ، لذا فمن اعترف بوحى السماء إلى رسول من البشر لزمته الحجة ألا ينكر نزول الوحى على أى رسول من حيث المبدأ وما على المنكر لهذا المبدأ إلا أن يبين لنا مقياساً آخر يعرف به وظائف العقائد، ويفسر لنا تواترها وتعاقبها على مرور الأجيال .

إن الرغبة الملحة فى إعلان كلمة الحق هى الغاية من إصدار هذا الكتاب ، وليس من سبيل للحكم على أى بحث إلا البحث نفسه ، فهو الذى يكشف عما إذا كان كاتبه يستهدف الحقيقة وجوهرها أو أنه يحاول من ورائه إثارة الشبهة أو الطمع فى الشهرة ، وسأترك للقارىء من متابعته لكل ما كتبت الحكم العدل فيما سينتهى إليه هذا البحث سائلا الله التوفيق والسداد .

إثبات أن القرآن كتابا سماويا

القرآن هو كتاب الإسلام ودستور المسلمين الذى أنزله الله على النبي ليجد فيه المسلمون نظام حياتهم وصلاح أمورهم فى الدنيا والآخرة ، وقد تعرض القرآن منذ أقدم العصور لمطاعن ومفتريات وشبه واتهامات قصدبها الذين أثاروها أن يشككوا فى صحته وفى إعجازه وفى صدوره عن الله .

وموقف أهل الكتاب عن القرآن موقف مضطرب إنهم حين يجدون فى بعض آياته ما لا يرضون عنه يقولون : إنه من عمل « محمد » أو من تلقيات تلقاها « محمد » من بعض الرهبان ، وأن « محمدا » سار بقرآنه فى الطريق الذى يتفق مع تقديره وتدبيره للخطط التى أعدها . وعمل لها حساب فى فترة طويلة من شبابه قضاها فى الرياضة والخلوة ومدارسة أهل الكتاب . ذلك على حين أنهم إذا رأوا فى القرآن ما يرضون عنه ، ما يقيم لهم حجة أو يضع بين أيديهم شبهة فيه تمسكوا وجادلوا فيه وجعلوه مستندا للأمر الذى يعنيهم .

وهذا موقف أقل ما يوصف أنه مجاف للإنصاف لا منطق له إذ القرآن كيان واحد ، إما أن يقبل كله أو يرفض كله ، فهو إما حق أو باطل، سماوى أو أرضى ، من عند الله أو من صنعة بشر . وهذا مانود أن نصل إليه ، ولكى نبلغ الغاية التى نريدها يجب أن نقف موقفا حياديا من غير أى تدخل من جانبنا ، ودونما أى تكلف أو إضافة .

ولكى نبلغ الغاية التى نريدها يجب أن ننظر إلى الموضوع نظرة موضوعية تتسم بالانصاف والحيدة وعدم التحيز والتعصب ابتغاء وجه المعرفة وحدها ، ونسأل : هل صحيح أن القرآن ليس من عند الله ؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغى لنا أن نستعرض أهم ما ورد فيه وهل هو مخالف لما جاءت به الكتب السماوية المنزلة من قبل ، أم أنه يتفق معها من حيث الجوهر والمضمون ، فإذا أوضح لنا أن مضمونه حاوياً آية صدقه وليس فيه ما ينقض طمأنينة العقل أو يريبها فلا مفر إذن من الإقرار بصدقه .

أما ما ينطوى عليه القرآن فهو ما يأتى :

— وجود الله ووحدانيته ، فلا خالق ولامدبر غيره، ولايشاركه فى سلطانه وعزته شىء ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شىء علما » (طه ٩٨) .

— الصفات الكاملة الإلهية مثل كونه واحداً وقديما وأزليا وقادرا وعالما وسميعا وبصيرا وقدوسا ومحييا ومميتا — إلى آخر هذه الأسماء التى عبر بها سبحانه عن نفسه فى كتابه على سمو ذاته وتعاليه عن خلقه .

وعلى كمال حاله الماثل فى رحمته وفضله التى يناجى المؤمن ربه ويدعوه ويستحضر عظمته ، يتعرف آثاره ويسمو عن طريقها إلى أسمى درجات التقرب إلى الله . والآيات الدالة على ذلك فى القرآن كثيرة جدا، نذكر منها على سبيل المثال قوله : وإلى الله ترجع الأمور » (البقرة : ٢١) . « والله واسع عليم » (البقرة : ٢٤٧) والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير » (آل عمران : ١٥٦) .

— الإيمان باليوم الآخر وجزاء الأعمال فى يومها ، وقد أرشد القرآن على أن ذلك خاتمة المطاف بالإنسان . وأن إليه تنتهى الغاية من خلق الإنسان « وأن ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى وإن إلى ربك المنتهى » (النجم : ٣٩/ ٤٠) . « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (الزلزلة : ٨/٧) .

— وحدة الرسالات الإلهية ، فالرسالات كلها ذات هدف واحد هو توجيه الإنسان إلى طريق الكمال والخير والحق ، وشرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى : ١٣).

وهو ينظر إلى هذه الرسالات على أنها مغارس هدى ورحمة فى حقل الإنسان ، وقد أدت دورا مثمرا ناجحا فى تربية البشر ، وفى تثبيت الحياة ، وفى دفع الضلالات ، وكشف العمايات عنها .

— وهو بعد تقديره لوحدة الدين يقرر وحدة الجنس والنسب .

فالناس إذا لم تسعهم أخوة الدين، وهى أرحب من الكون سعتهم أخوة الأصل الواحدة ، إن هم انعطفوا إلى الأصل والدم « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء » (النساء : ١) .

— وهو يأمر بالمساواة بين الناس ، لا تفاضل بينهم إلا على أساس كفايتهم وأعمالهم وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ووطنه : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (الحجرات) .

وهذه المساواة العامة فى الإنسان تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب، فوارق الانحراف البشرى والظلام الإنسانى، فوارق الجاهلية الضالة والهوى المتسلط والتعالى الكاذب والتمييز المصطنع وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق فى قليل أو كثير بين طبيعة الخلق والولادة وأسباب المعرفة والإدراك .

— دعا إلى القضاء على الرق والعبودية من أساسهما وجذورهما لأنهما يختلفان مع الحرية التى هى الأصل والحق الطبيعى للإنسان ، فليس من العدل أن تخلق طائفة لتحكم وتسيطر، وتخلق أخرى لتحكم وتستعبد ويخلق بعض الناس ليكونوا سادة وبعضهم ليكونوا عبيدا لهؤلاء السادة .

جاء الإسلام فوجد الأرقاء يعانون ألوانا من العسف والظلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، ورأى مآسى الرق تزداد مع الأيام ، فلم يكن له بد من علاج هذه المشكلة ، واستئصال ذلك الداء ،غير أنه رأى

— شأنه فى كل تشريع — ألا يلغى الرق جملة واحدة ، بل أخذ يتدرج فى هذا الإلغاء يسير فى سبيله فى هداوة واتزان رحمة بالناس وشفقة حتى لا يصدموا مرة واحدة بما لم يألفوا فينفروا ويرفضوا .

ومما شرعه الإسلام ليسهل على العبد أن يتخلص من رقه نظام المكاتبة وهو أن يتفق العبد مع سيده على أن يعتقه مقابل مبلغ من المال يدفعه العبد للسيد ، وفى نظير ذلك يتحرر العبد من سيده حتى يمكنه الحصول على هذا المال ويدفعه لسيده ثمناً لحريته ، بل أنه لا يكتفى بسن هذا النظام ليتيسر للعبد شراء حريته ، بل يلزمنا أن نساعدهم على ذلك ، وأن نعطيهم من أموالنا ، وفى هذا يقول :فكاتبوهم إن علمتم منهم خيرا، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

— يدعو إلى حسن المعاملة والتسامح من غير ضعف ولا ذلة ، والعفو عند المقدرة وضبط النفس : والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين « النحل : ١٢٦ » ، « ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون » ، « المؤمنون : ٩٦ » .

فهو هاهنا يقول : إن أساء إليك رجل فاعف عنه واصفح وقابل السيئة بالحسنة ، وإن ذمك فامدحه ولا تذمه وبذلك يصير كأنه صديق قريب إليك معتن بأمرك مهتم بشأنك . والاسلام وإن كان يجيز أن ترد السوء بالمثل إلا أنه يشجع العفو والمغفرة وضبط النفس عند المقدرة وليس فى ذلك شىء من الضعف مطلقاً ، وإذا عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (النحل : ١٢٦) .

— يجعل العمل فى سبيل الخير العام والرفعة الدائمة لا ينقطع أبداء فالإنسان لا يعوقه قضاء نازل أو يصرفه عنه بلاء واقع ، فأنت تجد الإيمان دائماً يحول بين النفس وبين القنوط ويحفظها من اليأس القاتل والهم المعوق ويفتح أمامها باب الأمل الفسيح . وهى تعلم أن ما عند الله خير وأبقى وتؤمن بقوله : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن تبرأها ، إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، وأن الله لايحب كل مختال فخور » (الحديد ٢٢/٢٣) .

— يأمر برعاية اليتيم رعاية تكفل له حياة طيبة مطمئنة ، فلا تضييع لماله ولا قسوة عليه ولا إهمال لأمر يضمن له الخير فى حاضره ومستقبله « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (النساء : ١) « وأما اليتيم فلا تقهر » (الضحى:٩).

— يدعو للتعارف والإيثار « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (المائدة:٢٠) وصفة الإيثار خروج من حظوظ النفس إلى حب الخير وعمل البر وبه يتم أقدس رباط وأكرم حب .

— يأمر بالعدل وينفر من الظلم « إن الله يأمر بالعدل والاحسان، وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (النحل : ٩) والدعوة للعدل فيه للعدو والصديق والقريب والبعيد « اعدلوا هو أقرب للتقوى » (المائدة : ٨) .

— يدعو عن البعد عن مصاحبة الفجار والفساق ، ويحرم الزنى حتى تتوافر للإنسان قبل أن يولد أسرة ترعاه وأبوه تحوطه ، واصل يمتد به نسبه « قل إنما حرم ربى الفواحش ، ماظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق » (الأعراف : ٣٣) . « ولا تقربوا الزنى أنه كان فاحشة وساء سبيلا » (الأسراء : ١١٢) .

— يحض على الرحمة ، والرحمة التى يحض عليها ليست خاصة بالبشر ،فهى تشمل كل ذى كبد رطبة من الانسان والحيوان « ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة » (البلد : ٢٧٠) .

— يدعو لأداء الأمانة والوفاء بالعهد « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » (النساء : ٥٨) . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (المؤمنون : ٨) .

— يحرم جميع المعاملات التى تنطوى على غش أو رشوة أو أكل أموال الناس بالباطل « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا مزيقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (البقرة : ١٨٨) .

— يحبب إلى الأغنياء التصدق بفضل أموالهم على الفقراء ، ويجعل هذا من أكبر التقرب إلى الله وأعظمها أجراً « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » (البقرة : ١٧٧) . يسألونك ماذا

ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وماتفعلوه من خير فإن الله به عليم » (البقرة : ٢١٥) .

ولاشك أن هذه المعانى الانسانية تجمع الناس على ألفة بارة ومحبة صادقة وأمن موفور .

— ينكر على الناس أن تخالف أقوالهم أعمالهم ، ويعد هذا منافياً لمنطق العقل مجافياً لسنة الفطرة يعرض صاحبه لمقت الله وغضبه « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (البقرة : ٤٤) .

يقرر أن كل إنسان مسئول عن عمله يجنى نتيجة كسبه « من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها » (فصلت : ٤٦) .

هذه التربية الاستقلالية تجعل من الفرد إنساناً جديداً ، يتحمل المسئولية وتجعله يقرر أمر نفسه بنفسه ، أو ينال مايرغب بسعيه وعمله ومن ثم فإن خطيئة لايحملها غيره ولايجازى عليها سواه .

— حث على العمل لينعم المرء بمعيشته فى الدنيا ، ويبتعد عن ذل الحاجة « وقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون » (الأعراف : ١٠) .

— فرض على أتباعه فرائض عملية من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وهذه الفرائض إنما قصد بها وقاية الانسان من الانحراف عن سوء السبيل وإعداده دائماً ليكون نموذجاً حياً للفضائل الانسانية والآداب القرآنية

فالصلاة رباط روحى يربط الانسان بخالقه ويذكره كل يوم بعبوديته فلا يرتكب إثماً أو يجترح خطيئة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

أما الزكاة فهى التشريع الأمثل للتكافل بين أفراد المجتمع ، وهى حق فى مال الأثرياء يحصلون عليه بالقوة عليه بالقوة عن طريق الحاكم ، إن تعذر حصولهم عليه بالطريق الطبيعى ، وهى فضلا عن ذلك تربى فى المسلم صفات البذل والانفاق فى سبيل الله وتحول بينه وبين الأثرة والفردية .

أما الصيام فهو فريضة خالدة فى كل دين ، تصل القلوب ببارئها ، وترتفع بالانسان إلى مستوى كريم من الروحانية الانسانية بالاضافة إلى آثارها الصحية والاجتماعية ، « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (البقرة : ١٨٣) .

والحج رحلة مباركة إلى المكان الذى دفن فيه ابراهيم أبو الأنبياء إلى بيت الله الحرام يقوم بها المسلمون الذين يقدرون على تكاليفها ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ، أنها رحلة تجمع المسلمين من كل فج عميق ، لتؤكد وحدتهم وتجمع كلمتهم ، وتسمو بأرواحهم إلى آفاق قدسية من الطهر والصلاح .

إن هذه الفرائض تهذب الانسان وتقى الأمة عوامل التخلف والضعف وتجعل المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

— كشف عن معجزات السيد المسيح كشفاً جلياً ، وتحدث عنها حديثاً

صريحاً قاطعاً ، فهو يلق إلى السيدة العذراء البشارة بمولده محلة بتلك المعجزات قبل أن يولد « قال كذلك الله يخلق مايشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل ، إنى قد جئتكم بآية من ربكم إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذن الله ،وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم » (آل عمران : ٤٩) .

فلا يفوتنا هنا أن نذكر ماقاله صاحب كتاب « المسيحية فى الإسلام(١) فى هذا الصدد قال : يظن الكثيرون أن الإسلام يطعن فى المسيحية ويحارب عقائدها ، هذا الظن منشؤه فى الحقيقة عدم الإلمام بما ذكره الإسلام عن المسيحية ، وأن الباحث المدقق فى جميع الأقوال التى أوردها القرآن عن النصرانية والنصارى ليتضح له أمران : أولهما : أن نبى الإسلام قد حفظ للديانة المسيحية مركزها ، وأيد حلالها ، وأثبت صحة الكثير من تعاليمها ، ونادى بوجوب تقديس أوامرها والعمل بها ، وثانيهما : أن القرآن لم يهاجم المسيحية التى أسسها المسيح ونشرها رسله القديسون ولكنه هاجم بدعاً خاصة كانت قد ظهرت عند ظهوره ، ونادت بتعاليم لاتقرها المسيحية فحاربها ، كما حاربتها المسيحية من قبل ومن بعد ، وكلنا نعلم أن الشرق ـــ وقت ظهور الإسلام ـــ كان مرتعاً خصباً للاضطرابات الدينية والخلافات المذهبية . فقد كانت الحرب

(١) الأب ابراهيم لوقا

مستعرة نارها بين اليهود والمسيحيين من جهة ، وكانت الفرق المبتدعة الخارجة عن النصرانية تتناوء مع بعضها من جهة ثانية ، كما كانت الوثنية تنازع هاتين الديانتين ـــ اليهودية والمسيحية من جهة ثالثة ، وكل من يطلع على تاريخ الهرطقات يقف متحيراً إزاء ما كان بين هذه الديانات والمذاهب من تطاحن وعداوة وبغضاء ، أشار إليها القرآن بقوله فى سورة المائدة « فأغرينا بينهم العداوة إلى يوم القيامة ، فقد كانت كل فرقة تكذب الأخرى وتكفرها ، ومن ثم جاء الإسلام يحارب الوثنية ويجاهد اليهودية ، ويؤاخذ المسيحية فى مذاهبها المتنوعة التى كانت تتنافى تعاليمها مع العقيدة الصحيحة فى الله تعالى منكراً عليها ما كان يثير الجدل والنقاش حولها . فالاسلام إذن لايعادى المسيحية ولايقاومها ، ولكنه على العكس يسير معها جنباً إلى جنب ويحالفها فى إشهار الحرب ضد الفرق المبتدعة » (١) .

خلاصة القول أن القرآن لم يترك أى جانب فى خلق الانسان إلا أوصى به وأورد أصوله . فالصبر والوفاء ودفع السيئة بالحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن حتى البيع والشراء والاقتصاد والقضاء ، بل

(١) هذا الرأى يتفق ورأى ومعظم العلماء المسلمين، وفى ذلك يقول سيدأمير على صاحب كتاب « روح الإسلام » أننا إذا استثنينا عقيدة الأبوة الالهية لم نجد خلافاً أساسياً بين المسيحية والاسلام فهما فى جوهرهما دين واحد ، وكلاهما وليد القوى الروحية المتشابهة فى الانسان ، فأولهما احتجاج صارخ على المادية الصارمة السائدة بين اليهود والرومان ، وثانيهما ثورة على الوثنية العربية المتدهورة وعلى تقاليد العرب وأوابدهم .

تحية المسلم للناس والاستئذان فى دخول مسكن ، وكل مايمس حياة
الانسان بالنسبة لربه أو نفسه أو غيره أو مجتمعه الصغير الذى يتمثل
فى أسرته ، والكبير الذى يتمثل فى وطنه، والمجتمع العالمى العام، ويكفى
أن يتدبر الانسان أى آية من آيات القرآن ليجد أن فيها دعوة هادفة إلى
الخلق الحسن والحياة الكريمة .

لك أن تأخذ أى مبدأ من المبادىء التى جاء بها ، وأى حكم من أحكامه
وأن تنتقل عبر الأزمان ، وأن تطوف به فى مختلف الأمم والشعوب ،
فإن رأيت فيه بنوا عن الحياة ، أو مجافاة لطبائع الناس ، أو تخلفا عن
مواطن الحب والفلاح لمن اعتقده وعمل به فلك أن تسىء الظن .

وهـــذا من القرآن يدل دلالة واضحة على أنه إنما ينطق بالحق .
ولا يلتفت إلى شىء وراءه من اعتبارات أخرى ولا يعمل حساباً إلا
للحق وحده سواء كان ذلك مما يرضى الناس أو يسخطهم .

لو أن القرآن كان من عمل « محمد » أو من تدبير بشر ، لما كان مما
يلتفت إليه أبداً أن يزكى السيد المسيح ووالدته العذراء مريم ويطهرهما
ويرفع قدرهما إلى حيث لايكاد يطاولهما أحد وأن يعرض من معجزات
المسيح مالم يجرؤ اتباعه على الجهر به ، وكان أولى بالقرآن لو أنه كان
من عمل بشر ، أو كان مما يمكن أن يدخل عليه مما ليس فيه ، كان من
حسن السياسة والتدبير على مستوى البشر — أن يصمت القرآن ولا يقول
شيئاً عما غفل عنه المسيحيون أنفسهم ، كان أولى بالقرآن — لو أنه
من عمل بشر — ألا يضع فى يد الخصم سلاحاً ماضياً وهو يريد أن

يدخل معه فى معركة فاصلة فى شأن المسيح فلا يقول فيه هذا القول الذى
يرفعه هو ووالدته العذراء مريم إلى هذه المنزلة الكريمة العالية ، وأن
يدع مقولات اليهود وافتراءاتهم عليه وعلى والدته مريم تعمل عملها فى
تلك المعركة .

لكن الذى وجدناه أن مع القرآن وبين يديه شواهد كثيرة تشهد
بأنه من عند الله ، وأنه ليس لمحمد فيه إلا أنه الرسول المبلغ له امتثالا
لأمر الله فى قوله تعالى : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك
وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (المائدة : ٦٧) ويأمره الله بأن يرد
على الذين يقترحون عليه آيات بقوله تعالى « ويقول الذين كفروا لولا
أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد »(الرعد : ٧) .
ويقول أيضاً «قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ،
قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا مايوحى إلى »
(يونس : ١٥)

لو كان « محمد » هو صاحب هذا القرآن ، وكانت للرسالة التى حملها
إلى الناس لحسابه خاصة ، ثم نسب ذلك إلى الله ، أو أية إلى جهة أخرى
لكان ظالماً لنفسه أشد الظلم إذ بخسها حقها وحرمها هذا المجد العظيم
الذى يؤهله لها هذا الكتاب العظيم الذى تحدى الإنس والجن وأعجزهم
أن يأتوا بمثله ، ولكان من حق من يصدر عنه هذا الكتاب المعجز
القاهر أن يكون فوق العالمين مستنداً إلى ذاته لا إلى قوة إلهية تسنده
وتمده بهذا العمل المعجز ، ولكان له أن يدعى أنه إله فى الأرض
يناظره احد ولا يلحق به أحد .

وبعبارة أخرى نقول : هب أن « محمداً » استوحى أصول دينه العظيم من الأرض لامن من السماء ، فماذا يستتبعه هذا الغرض مما يصادم العقل والواقع ؟

النتيجة الغريبة هو أن قرآنا بشرياً استطاع أن يقوم بدعوة لتوحيد الله فى أسلوب من القول والتوجيه شأنه شأن الكتب السماوية السابقة .

لكن « محمد » يعرف أين مكانه من ربه ، وأنه ليس إلا عبداً من عبيده أنعم عليه برسالة كريمة يدعو الناس إليها ويبلغهم ما أنزل الله ، وما جاءه من ربه وربهم .

فالقول أن الكتاب من عند « محمد » دعوى باطلة يدفعها محمد لأنه لايدعى ماليس له ، ولأن أى بشر يدعى أن القرآن من عمله يفصح نفسه بما تنطق به آيات القرآن من إعجاز ليس فى مقدور بشر أن يقوم به ، ولأننا وجدنا مضمونها لايختلف عما وجدناه فى الكتب السماوية من قبل ، وفى كل مادعا إليه الرسل من قبل .

دعوة إلى كل خير وصلاح .

دعوة إلى الأخوة الإنسانية العامة فلاتفرقة بسبب الجنس أو اللون أو النسب .

دعوة إلى الحق والعدل وإشاعة الخير والبر .

دعوة للنظر فى الكون والانتفاع بما فيه والاقرار بموجبه .

دعوة المسلم فى أبر صورة وأكرم سبيل .

دعوة للحب والإيثار والشفقة والرحمة ومكارم الأخلاق .

دعوة لتهذيب الفرد وتكامل الجماعة . وحب الانسان الانسان مع الكون بإرادته وعمله .

وقبل أن نختتم هذا الباب نود أن نلتقط بعض الثمرات الطيبة من آراء بعض العلماء الغربيين المنصفين فى حق القرآن دون أن نعرض لها بالشرح أو التعليق ، فهى فى ذاتها فى غنى عن الشرح والتعليق .

فما قاله « سيديو » فى كتابه « تاريخ العرب العام » فى حق القرآن قال : من شأن مبدأ التوحيد الجليل الذى نشر بين قوم وثنيين أن يضرم الحمية فى النفس العالية ، ويسود هذا المبدأ القرآن ، وإليه يعود إبداعه ، ولانجد فى القرآن صفحة لاتوحى بمحبة شديدة لله . ويقول بعضهم أن القرآن ينكر حرية الانسان وإرادته ، وأن يحصر الانسان ضمن دائرة سلبية من عدم الاكتراث ، لما رئى من نص القرآن على أن الله يختار أصفياءه من هذه الحياة الدنيا ، ولما كتب من نصر لمن يجب أن ينتصروا ومن هلاك لمن يجب أن يهلكوا فى المعارك ، ويستنبط بعضهم قول القرآن بعدم فائدة الفضيلة ، لما رئى من وضعه الايمان وصالح الأعمال فى مستوى واحد لنيل ثواب الآخرة ونحن لانرى ذلك من الحق ، ونحن نرى أن محمداً يذهب فى القرآن إلى حرية الانسان وتأثير إرادته فى عمل الخير والشر . وفى القرآن حث كبير على الفضيلة ، ودعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم .

وفى القرآن مقت شديد العجب والغضب ، وفيه إشارة إلى أن الذنوب

قد تكون بالفكر والنظر . وفى القرآن حض على الوفاء بالعهود حتى مع الكافرين وفى القرآن تحريض على خفض الجناح والتواضع ، وعلى استغفار الناس لمن يشيئون إليهم لا لعنهم .

ويكفى جميع الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشداً لإثبات قواعد الأخلاق ، وليس فيها ما يناقض ما جاء فى الإنجيل ، بيد أنك لا تجد فى القرآن ما فى الإنجيل من التسليم الذى يفيد كثيراً عند الشدائد فترى محمد يأذن — بيين كثيرمن المتناقضات — فى مقابلة السيئة بالسيئة كأن الناس لم يكونوا مستعدين لذلك قبل ذلك .

ومحمد حين كان يقول بمبدأ القصاص الذى رضى به اليهود مع ذلك يكون قد ساير أحكام زمانه وقومه ، وفى هذا إيضاح لمختلف الآراء التى أبداها بعض الناقدين حول القرآن ، ومن هؤلاء من جعلوا من ذلك مجموعة خدائع اختلطت بأرقى المبادىء ، ومن هؤلاء من لم ينظروا إلى ما كان يحيط بالنبى من ضروب العوائق التى تعوق سيره فلاموه على أعمال يرفضها عقله فلم يسمح بإبطال ما قطر عليه قومه من الخلق العاطفى والأهواء .

ومما تقدم ترى أن القرآن أبصر كل شىء ، وأنه لم يهمل أمر فى عمل محمد الدينى أو المدنى أو الحربى ، وترى السلطة الزمنية والسلطة الروحية قبضته رجل واحـد ، ولا ترى سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية ولا طبقات ذات امتيازات .

يقول « ديرمايخيم » فى كتابه « حياة محمد » ! إن كل نبى يجب أن

يأتى ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالة ، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهو يختلف عما يأتى به الأولياء ويسمى « كرامة » والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فان جماله الأدبى الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزاً لم يحل ، وهما يضعان من يتلوه ، ولو كان أقل الناس تقوى ، فى حالة خاصة من الحماسة . لقد تحدى محمد الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية فان محمدا كان يحتقر الشعراء ، ودفع عن نفسه أن يكون واحداً منهم ، ولكن الأمر يتعلق بشىء آخر غير هذه القيمة ، وهو الفرق بين وحى الإله وإلهام الشياطين » .

٣ — أما « ديزيريه بلا شبيه » فيقول فى وصف القرآن فى كتابه « دراسات فى تاريخ الأديان ، كفى هذا القرآن مجدا وجلالا إن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف أسلوبه ، بل لا يزال غضاً كأن عهده بالحياة « أمس » .

٤ — ويقول « جوستاف لوبون » فى هذا الصدد ، إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعب .

٥ — أما « جون كسنجلى بيرج » رئيس إدارة النشر لمجلس البعثات الأجنبية فى المؤتمر السنوى الخامس الذى أقامه معهد الشرق الأوسط بواشنطون عام ١٩٥١ فقال ! ونحن الغربيون يجب ألا نكون متسامحين فحسب ، بل مشفقين ومتفهمين أيضا . وأنا أضع على حائط مكتبى آية من القرآن ولدى كذلك حديث نبوى ، وأحب أن أتخير آيات أخرى

من القرآن تحرك لدى الإلهام الديني ، ونحن محتاجون أن نتفهم الآيات القرآنية الجميلة ذات المعنى الديني العام الذى يلائم كل إنسان .

٦ — ويقول « اليكسى لوازون » خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الأخلاق ، وهو كتاب مقدس ، وليس من المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الاسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية .

٧ — أما « واشنطون ايرومنج » فيقول : يحوى القرآن أسمى المبادىء وأكثرها فائدة وإخلاصا .

٨ — أما « جيمس تشلز منشتر » فيقول فى مقال له : لعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم ، وهو بكل تأكيد أكثرها حفظا وأشدها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به ، فليس طويلا كالعهد القديم ، وهو مكتوب بأسلوب رفيع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر ، ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه ، وتزداد إيمانا وسموا ، وأوزانه ومقاطعه كثيرا ما قورنت بدقات الطبول وإصداء الطبيعة والأغانى المعروفة فى الجماعات القديمة .

٩ — أما « هنرى دى كاسترو » فيقول « لو لم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه لكفى ذلك أن يستولى على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب ولقد نزل على محمد دليلا على صدق رسالته ، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار التى يتعذر فك طلاسمها ، ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه نزل من الله » .

١٠ — وأخيرا هاهو « جوهان ولفانج جوته » كبير أدباء الألمان وشاعرهم الأعظم فى فرانكفورت عام ١٧٧٢م . يعكف على تلاوة القرآن فى ترجمة ألمانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته المستشرق العلامة « مرجرلين » حتى إذا فرغ منها عكف بعدها على تلاوة القرآن فى ترجمة لاتينية سابقة لها طبعها فى مدينة « بادو » بإيطاليا القس الجزويتى « ماراتشى » Harracci عام ١٦٩٨م .

وقد ظل « جوته » طويلا يمعن فى دراسة القرآن إمعان الباحثين وهو يقول : إن القارىء الأجنبى يمله لأول قراءته ، ولكن يعود فينجذب إليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والاجلال ، ويستشهد « جوته » فى كلامه عن القرآن ، وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

ويقول « جوته » إن القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ويكرر التبشير والنذير سورة بعد سورة ، وهو لا يرى فى هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون ، لأن محمد لم يرسل برسالة شاعر للتفنن فى القول أو التنويع فى ضروب الكلام ، وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام لاستحداث اللذة وإدخال الطرب ، بل هو ينص القرآن بعيدا عن هذا الوصف ، وإنما محمد نبي مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى

إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها ، فالكتاب المنزل على محمد إنما بعث به إلى الناس ليقتضيهم القنوت والايمان ، ومن ثم نراه إذا ما عرض للقصص الدينى لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار ، بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب الأمثال ، ومواضع الاعتبار كما أن تعاليمه عملية ومطابقة للحاجات الفكرية » .

هذه أمثلة من بعض الآراء فى حق القرآن لعلماء من غير المسلمين لم يكن لهم مطمع من وراء آرائهم هذه إلا إظهار الحق ، ونستطيع أن نذكر الكثير منها لولا ضيق المجال ، وكلها جاءت تنطق بالحق ، وكان القرآن لا يمكن أن يكون من صنع محمد ولا من صنع بشر تلقاه عنه ، وقد سجل الله فى القرآن نفسه عجز البشر عن الاتيان بمثله ، وجابه المعرضين عنه بالعجز الدائم المستمر فقال « وإن كنتم فى ريب على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (البقرة ٢٣/٢٤) .

محمد وهل هو من عند الله؟

ما قيل فى حق القرآن قيل كذلك فى حق صاحب الشريعة نفسه فقد اتهموه بالكذب على الرغم من تيقنهم من صدقه واشتهاره به بينهم وقصة تلقيبه بالأمين لا تخفى على أحد ، وزعموه متهالكاً على اللهو ، وزعموه ساحراً ، إلى آخر هذه الاتهامات .

والآن دعونا ننظر فى صفات صاحب الرسالة ومنهجه لنرى أبعاد هذا المنهج ، ولنرى إن كان لهذه الاتهامات أى أساس من الصحة ، أما إذا اتضح لنا أنها غير صحيحة ، بل بالعكس إن الأخلاق الحسنة ظهرت فيه أكمل ظهور ، كما شهد بذلك المخالفين ، فالمنطق والعدل يحتمان أن نعترف به نبياً ورسولا .

وشخصية كل إنسان هى السمات التى تظهر عليه فى حياته وتتجلى فى أعماله ، وهى المميزات التى يمتاز بها عن غيره وينفرد بها دون سواه ، وهى الخلائق الذاتية التى تجعله فى إطار فريد يلفت النظر ويجذب القلوب ويسترعى الأسماع .

ومحمد — كما شهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء كان المثل السامى فى أخلاقه وتصرفاته وأفعاله ، وإن هذه الصفات كانت من أهم العوامل فى سرعة استجابة الناس للدعوة ، التفوا حوله وأنسوا له ، واطمأنوا لبقائه ، وتغذوا بالحديث معه ، ومما قاله المستشرق « سيبل » فى مقدمة ترجمته للقرآن فى الصفحة السادسة من النسخة المطبوعة عام ١٨٠٥ قال : إنه كان حسن الوجه ذكياً ، وكانت طريقته مرضية ، وكان الاحسان إلى المساكين شيمته ، وكان يعامل الكل بالخلق الحسن ، وكان شجاعا الأعداء ، وكان يعظم إسم الله تعظيماً قوياً ، وكان يشدد على المفترين والذين يرمون البراءة ، والزناة والقتلة وأهل الفضول والطامعين وشهود الزور تشديداً بليغاً ، وكان كثير الوعظ فى الصبر والود والبر والاحسان وتعظيم الأبوين والكبار وتوفيرهم وتكريمهم ، وكان عابداً مرتاحا فى الغاية .

وإن وحدة المضمون والجوهر القائمة بين بعض الأحاديث وبعضها الآخر تكشف عن موكب عظيم من الاتجاهات التقدمية الراشدة فى تعاليمه وتوجيهاته ونجد وثيقة باهرة من وثائق حقوق الانسان ، فإذا استطعنا — أولا — أن نبصر وحدة المضمون هذه ، واستطعنا — ثانياً — أن نتتبعها فى جميع ما تؤلف بينها من نماذج وجدنا أنفسنا أمام القيم الانسانية الكبيرة وكأنها تكتب وتقدم القيم فى أوضح مفاهيمها وأصدق خصائصها .

لقد ظهر بين قوم لا كتاب لهم ، ولا حكمة فيهم ، فقد كانت

العرب قبل ظهور محمد برسالته العامة قد انحدرت فى جاهليتها إلى ساقه الأمم ضلالا وجهلا لا يفقهون من أمر الحياة شيئا ، ولا يحسنون من العمل إلا الحروب والغارات واعتداء كل قبيلة على ما جاورها لسلب أموالها وسبى نسائها ، وكانت لهم عادات ذميمة وأفعال منكرة .

ولعل أصدق تصوير لحال العرب فى الجاهلية هو ذلك الذى قرره جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى ملك الحبشة حينما سأله عن دين الإسلام والرسول محمد قال جعفر : « كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، كنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، وصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله . فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك ايها الملك » (ابن الأثير ص ٦١ ج ٢) .

في هذا الجو الخانق ، والغيوم المكفهرة ، والضلالات والأباطيل والوثنيات ، أرسل محمد وأمر أن يبشر الناس بعبادة الله، وتسفيه آراء الوثنية ، والشرك والبهتان ، ويخرج هؤلاء الناس مما هم فيه إلى حياة كريمة تتفق وكرامة الانسان ، وهذا ما حدا بـ « توماس كارليل » إلى أن يقول : قوم يضربون فى الصحراء لا يعتنى بهم عدة قرون ، فلما جاءهم النبى العربى صاروا قبلة الأنظار فى العلوم والمعارف ، وكثروا بعد أن كانوا قليلين ، وعزوا بعد أن كانوا أذلاء ، ولم يمض قرن بعد الإسلام حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم .

ولم يقل للناس عندما ظهرت قوته أن رسالته جديدة فى أصلها ، بل صرح فى أقوال كثيرة أنه قد سبقه رجال غيره اصطفاهم الله لمثلها ، ولم يدع أن الدين الذى بعث به هو دين خاص له لم ينزل على أحد قبله، بل قرر أنه دين الله الذى بعث به سائر الرسل لهداية الناس ، ولذلك أمر أن يجهر بهذه الآية « قل ما كنت بدعا من الرسل ولا أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، إن اتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين » (الأحقاف : ٩) .

وحد بين الأجناس والعناصر والألوان ، فدعا إلى إخوة بشرية عامة لا تفاضل فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وهذا ما دعا « دودلى » إلى أن يقول : أكان فى مقدور رجل — ما لم يكن ملهما — أن يأتى إلى الوجود بمثل هذه الأخوة العالمية » .

هذه الدعوة ليست نظريات مجردة أو فلسفات منعزلة عن واقع

الحياة بل هى الحياة نفسها ممثلة فى اتساق الانسان مع هذا الكون وعدم نفوره منه . هى دعوة بقدر ما حطمت من أصنام وأزالت من أوثان وأزالت من شرك ظاهر وخفى ، مكنت للحرية الانسانية فى ظل مساواة فطرية مهذبة منشؤها أن الناس جميعا منتمون إلى أصل واحد، فلا معنى للتفاضل بأصل أو نسب ، مخلوقون لخالق واحد . الجميع أمامه سواء وهو ربهم وهم عباده ، أقربهم إليه أبرهم بخلقه وأخلصهم لطاعته.

— حارب جميع العصبيات وأبطلها ، وحل المشكلات وجميع العقد النفسية وأزالها ووضع مكانها حب الخير والتعاون والرحمة والبر والشفقة ، وكان قلبه يخفق كلما رأى دليلا من دلائل الخير فى الإنسان وللانسان ، وهو فى هذا يقول : ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » .

— الحرية التامة فى نشر دعوته ، فقد أمره الله فى نشر دعوته أن يأخذوا بها أو يدعوها ، إذ لا يصح أن يكره على الإيمان برسالته ، أو أن يسيطر على أى إنسان وإنما عليه البلاغ فحسب ، ذلك أن الايمان لا يبنى إلا على الاطمئنان القلبى والاقتناع العقلى « ما على الرسول إلا البلاغ ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » .

— إنسانيته التى جاوزت كل تخوم الذات وحدودها . تراها فى أحاديثه ومواقفه ، وفيها ترى الانسان الحانى الذى لا تفلت من قلبه شاردة من آمال الناس وآلامهم إلا لباها ورعاها وأعطاها من ذات نفسه كل اهتمام وتأييد .

اختلف مرة أبو ذر الغفارى، وعبد زنجى فى حضرة محمد، فاحتد أبو ذر على العبـــد وقال له: يا ابن السوداء، فغضب النبي وقال: طفه الصاغ، طف الصاغ، أى تجاوز الأمر حده. ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح، أى أن معيار التفاضل هى الصفات النفسية والمزايا الروحية، لا الألوان الجلدية، فما كان من أبي ذر الغفارى إلى أن وضع خده على الأرض وقال للأسود: قم فطأ على خدى.

— يسأله يوما أعرابى فى بداوة جافة: يا محمد. هل هذا المال مال الله أم مال أبيك، ويبتدره عمر بن الخطاب بسيفه يريد أن يجهز عليه فيرده النبي قائلا: دعه يا عمر أن لصاحب الحق مقالا.

— يأتيه رجل من الأعراب ليبايعه يوم الفتح الرهيب، وهو فى قمة السلطان فتأخذ الاعرابى الرهبة بين يديه فيرتعد: فيعجب محمد ويقول له فى بساطة أخاذة ترد الطمأنينة إلى قلب الاعرابى: هون عليك، لست بملك. إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة.

— مرت عليه جنازة فوقف لها فى خشوع! فقال له أصحابه: إنها جنازة يهودى، فأجابهم. سبحان الله، أليست نفساً.

— يدخل مكة ظافراً، ويقف أمامه صاغرين جميع الذين شنوا عليه الحرب والبغضاء، ومثلوا بعمه «حمزة»، ومضغوا كبده بوحشية ضارية فيقول لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ فيقولون فى ذلة وضعف: أخ كريم وابن أخ كريم فيرد عليهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

— يجعل السهر على مشاكل الناس والسعى لحلها عبادة من أفضل العبادات ويقول فى هذا المقام: لأن أمشى مع أخ فى حاجة، أحب إلى من أن أعتكف فى مسجدى هذا شهرا.

— يدعونا إلى التوبة دوما، لأننا على الدوام عرضة للزلل فيقول: يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة».

— تتوالى أحاديثه داعية إلى الفضائل وناهية عن الرذائل، وهو فى كل هذا يهدف إلى إقرار العدل والسلام بين الانسان ونفسه. لقد لخص الدين فى كلمة واحدة فقال: الدين ... النصيحة.

— يحض على الرحمة، ويتتبع كل مواطن الحاجة إليها، وكان وهو يحيط بها من كل جانب يضع لها دستورا وقانوناً: إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء، وقال قائل: يا رسول الله. إنا نرحم أزواجنا وذرياتنا، فقال: ما هذا أريد، إنما الرحمة للكافة».

— يوصى بالجار، رافعاً لحقوقه لواء لا ينبغى لاحد أن يتحداه: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ويقول: خير الاصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران خيرهم لجاره.

— كان يكره المظاهر المفتعلة، ولا يحب للناس أن يراءوا بالأعمال والأشكال ويعتبر المراءاة شركاً، وفى هذا يقول: إن الله لا ينظر الى صوركم وأقوالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

إن نوايانا تشكل أعمالنا وتوجهها ، والعمل مهما كانت ضخامته وخطره لا يكون جليلا ولا يكتب له الخلود والحق إلا بقدر ما تكون من النوايا التى أطلقته جليله وصادقه ، وهـذا ما يجعل للنفس الباطنة قيمتها ودورها . . . فالنفس الباطنة فى جوهرها هى إرادة الخير بكل ما تمثله هذه الإرادة من صدق وإخبات .

إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لـكل امرى ما نوى . قاعدة ترتكز عليها وتنهض فوقها كل قيم الحياة و « بوصله » تحدد وجهة السلوك وتميز خبثه من طيبه . فالأعمال ـ جميع الأعمال ـ لا تستمد قيمتها من شكلها الخارجى بل من ضميرها الخفى . . ؟ لم يقل لـكل امرىء ما عمل ، بل قال : لـكل امرىء ما نوى ذلك أن أحلامنا ، لا أعمالنا هى التى تكشف بصورة أوضح عن جوهرنا وعن حقيقة أنفسنا الباطنة .

— دعا إلى مراعاة الأمانات ، والبعد عن الخيانات ، ونهى عن الحصول على غنم دنيوى دون وجه حق ، أو الاستيلاء على مال من غير جهد ومشقة وهو فى هذا يقول : والذى نفس محمد بيده لا يكسب عبد مالا حرام فيتصدق به فيقبل منه ، ولا ينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله لا يمحو المسىء بالمسىء ولـكن يمحو المسىء بالحسنى . إن الخبيث لا يمحو الخبيث .

— جاءه رجل وقال : يا رسول الله . دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى عن النار فقال : اعتق النسمة (١) وفك الرقبة (٢) .

(١) النسمة فى اللغه : الانسان .

(٢) فك الرقبة : أعتقها .

وقد انعكست هـذه الوصية وغيرها فى الحقوق التى أعطاها الولاه والخلفاء للعبيد والرقيق وإشعارهم بأن لهم ما للإنسان من كرامة نفسية وحقوق إنسانية ، وأنه لا فرق بين أبيض وأسود من ذلك مثلا حينما جاء عمرو بن العاص إلى مصر أرسل إلى المقوقس[1] وفداً يرأسه عبد أسود يدعى « عبادة بن الصامت » وهو من عظماء الصحابة المتفقهين فى الدين للتحدث مع المقوقس فى شئون الصلح ، فخافه المقوقس لسواده وضخامة جسمه وقال : أبعدوا عنى هذا الأسود : وليتقدم غيره ليكلمنى فأجابوا . إن هذا أحسننا رأياً وعلما ، وهو سيدنا وأفضلنا والمقدم علينا ونحن جميعا نسمع ما يقول ، ونعمل بما يرى ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا بطاعته فيما يرى وما يقول : فقال المقوقس . وكيف قبلتم أن يكون هذا الزنجى الأسود رئيساً عليـكم وينبغى أن يكون هو دونـكم ؟ فأجابوا . كلا ـ أنه ـ وإن كان أسود كما ترى ـ أفضلنا مكانه وأكثرنا حكمة وعلما وليس تنكر السواد فينا . وعندئذ اذعن المقوقس لسماع أقواله وقبل شروطه .

من هنا نرى كيف أن الاسلام لم يفرق بين الابيض والاسود ولم يفرق بين لون وآخر ، وقضى على التفرقة العنصرية والرق والعبودية ، ونادى بالحرية . قال عمر بن العاص : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

— اليتيم والأرمل والمسكين أكثر الناس خوفا من المصير وأكثرهم

(١) المقوقس كان زعيما للاقباط فى ذلك الحين .

حاجة إلى الحنان والأمن والرحمة : إن أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم فيكرم ، ويقول أيضاً : والذى بعثنى بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ، والان له فى الـكلام ورحم يتمه وضعفه .

— يرفع من منزلة العمل ويحط من الكسل والتواكل ، كان جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة قد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان سعيه وجلده فى سبيل الله . فقال النبى لا تقولوا هـذا فإنه وإن كان يسعى على نفسه ليـكفها من المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثرا فهو فى سبيل الشيطان .

— نهى عن ذكر العيوب والنقائص ، فإن الطعن فى الأشخاص يجرح الصدور ويورث العداوات ، وهو لهذا يقول : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

— يتصور العدل تصورا فذا ، وينزله أعلى مكانة حين لا يجعله فضيلة من فضائل البشر وجوهم، بل قبل هذا خلقا من أخلاق الله سبحانه فيقول حاكيا عن ربه : يقول الله تعالى : يا عبادى إنى حرمت الظلم وجعلته محرما عليكم فلا تظالموا .

— تأمله وهو ينصف الناس من نفسه ، ويعرض نفسه على رعيته فيصعد المنبر يخاطب الناس قائلا ، أيها الناس . من كنت قد أخذت منه مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليقتد

منه ، إن أحبكم إلىّ من كان له حق فأخذه وحللنى منه فلقيت ربى وأنا طيب النفس .

— نهى عن احتكار الآخرين وهو فى هذا يقول : ألا أخبركم بشر عباد الله ، الفظ المتكبر .

— دعا إلى المحبة الروحية والأخوة الإنسانية قائلا لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

— والحب فى حياته، وفى أحاديثه تجده قد اتسع لكل شىء وأحاطه لكل شىء . أحب الله وأحب الناس . وأحب كل شىء فى كون الله الرحيب يدخل على ولده الحبيب « ابراهيم » وهو مسجى فى فراش الموت ويتدفق حنانه غامرا فلا يزيد على أن يقول وعيناه تبـكيان تدمع العين ويحزن القلب، ولا تقول ما يسخط الرب ، والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا .

— عرض عليه الجاه والسؤدد وأرادوه ملكا عليهم ، ولـكن محمد صاح صيحته المشهورة ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهر الله أو أهلك دونه .

— كان يوصى دائماً بلهجة قاطعة قواد السرايا والبعوث إلى القبائل المعادية المغيرة بعدم التعرض للضعفاء ، لا تقتلوا إمرأة ولا وليدا ولا شيخا ، ولا تحرقوا نخيلا ولا زرعاً ولا تهدموا بناء .

— سهل لغير المسلمين من المسيحيين وغيرهم أن يعيشوا فى أمان فقال ، من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة ،وسوى بينهم وبين المسلمين

فى الحقوق والمعاملات الدنيوية ، وكانت نفوس غير المسلمين مطمئنة كل الاطمئنان .

ولا ينسى الخليفة هذه الأحاديث وهو يكتب وصاياه فيذكر الفاروق (١) بها عمرو بن العاص ويقول له فى كتابه إليه، إن معك أهل الذمة والعهد فاحذر يا عمر أن يكون رسول الله خصمك .

ولعل فى الوثيقة التى أصدرها النبى إلى رهبان دير سانت كاترين لعل هذه الوثيقة لخير دليل على سماحة الاسلام وسمو مبادئه ، لقد كانت رسالة محمد بن عبد الله إلى رهبان الدير رسالة شامخة اشتهر أمرها فى الناس ، وقد حرص الرسول على أن يملى رسالته على ملأ من الصحابة والتابعين رغبة منه فى تأكيد حسن السياسة التى التزمها ، وأمرا منه بأن يتبعوها فى علاقاتهم مع أبناء الديانات الأخرى ، وبهذا كشف عن حقيقة الغاية التى تربط المسلمين بغيرهم من أبناء الديانات الأخرى .

وفيما يلى فقرات من هذه الوثيقة :

« هذا كتاب محمد بن عبد الله، كتبه لمن هم على دينه ، عهدا لأولئك القوم الذين على دين النصرانية ، فمتى كان راهب أو سائح مجتمعا فى جبل أو واد أو مغارة أو كنيسة فنحن من ورائهم ، وإنى لاذب عنهم بنفسى والموالى وأنصارى وشعبى .

٢ — لا يهدم بيتا من بيوت كنائسهم ولا يدخل منها إلى بيوت المسلمين .

٣ — إذا تزوجت امرأه نصرانية بمسلم فلا يكون ذلك إلا برضا

(١) الفاروق كناية عن عمر بن الخطاب

تلك المرأة ، ولا تمتنع من الذهاب إلى كنيستها لأجل الصلاة » .

مثل هذه الوثيقة وغيرها تعطينا فكرة واضحة عن سلوك الإسلام ودستوره الأصيل فى توطيد مجال الأمن ونزوعه إلى التعايش الدينى السليم حتى يشعر جميع الذين يعيشون تحت الراية الاسلامية أنهم أحرار به وعلى قدم المساواة ،وعلى الأخوه والتكامل الانسانى المشروع لم تكن هذه الحرية قولا، وإنما كانت حقيقة ثابتة مارسها الذين عاشوا فى ظل الحكومات الإسلامية ، ذلك أن الصحابة والولاه الذين تولوا الحكم فى البلاد التى فتحوها التزموا إلتزاما دقيقا بهذه الوثيقة فى معاملتهم مع المسيحيين . والتاريخ يفيض فى الحديث عن صور التسامح والمساواة والعدالة . وعن أحداث لا زالت تنبض بالحياة فى سجل التاريخ البشرى تنطق بعدالة الذين مارسوها ، وعدالة المنبع الذى استقوا منه هذه الفضائل وهى فى نفس الوقت حجة على أولئك الذين يتهمون الإسلام بغير ما هو عليه . تدفع بالمسيحيين إلى تغيير موقفهم من هذا الدين ومايحول دون النظر لما جاء فيه .

— مر فى يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد (١) فكان الناس يمشون خلفه ، فلما سمع صوت النعال ، وقر فى نفسه (٢) فجلس حتى قدمهم أمامه لئلا يقع فى نفسه شىء من الكبر .

لقد كان ينأى بنفسه عن المساس بالمظاهر التى قد يشتم منها معنى الكبرياء ، إذ إنه لما أحس بمشى أصحابه خلفه ، وهى عادة المتكبرين

(١) بقيع الغرقد : مقبرة المدينة . والغرقد نوع من الاشجار .

(٢) وقر فى نفسه : ثبت فى نفسه .

جلس ينتظر لحاقهم به فى يوم شديد الحر ، ليعلن للدنيا فى امتدادها للطويل إن الإسلام هو دين المساواة الحقيقية ، وأن نبى الإسلام يرفض أن يتقدم الخطى على أصحابه حذرا من تسرب وهم الكبرياء إلى نفسه ، وليكون ذلك درساً خالدا للناس فى علاقاتهم ببعضهم .

— حارب الجهل وجعل التعليم واجبا ، وفى هذا يقول : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ويقول أيضاً : من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم ،

هذا نهج رسول ـ لباب عمله العباده والنسك ، ومع هذا فهو يعلن أن بضع خطوات يمشيها فى حاجه محتاج أحب إليه وأذكى لديه من أن يعتكف فى مسجده شهرا يقوم ليله ويصوم نهاره ،عاش مع الله، وعاش مع المستويات الرفيعة التى حلق عندها رسل الله جميعا ، وعاش مع القيم العليا التى آثرها على مناعم الدنيا وجاهها وغرورها ، أنه إنسان احتشدت خصائص الإنسانية وفضائلها فى نفسه إحتشادا بلغ الغاية فى القوة والاتساق ثم هو إلى هذا رسول اختاره الله على علم وأمده بكل مزايا الاصطفاء .

وقبل أن نترك هذا الباب لا يسعفنا إلا أن نستعرض بعض الآراء التى قال بها مستشرقون ومفكرون عالميين فى حق نبى الاسلام ،

١ — فما قاله « توماس كارليل » فى حق نبي الإسلام : من العار أن يصغى إنسان متمدن من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين أن دين الاسلام كذب ، وأن محمدا لم يكن على حق ، لقد آن لنا أن نحارب

هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمان لملايين كثيرة من الناس فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع ، ولو كان الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الزواج الكبير لأصبحت الحياة سخفا وعبثا وكان الأجدر بها ألا توجد .

وهل رأيتم رجلا كاذبا يستطيع أن يخلق دينا يتعهده بالنشر بهذه الصورة ؟ .

إن الرجل الكاذب لايستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب لجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه فما ذلك الذى يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد فما بالك بالذى يبنى بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟ إلا فليعلم الناس إن التعاليم كأوراق « البنكنوت » فالصادقة منها تتداول بين الناس ولا تثير أقل شبهة ، والزائفة منها تخدع بعض الناس مرة أو مرتين ، ثم يفتضح أمرها وتعرف إنها زائفة فتمزق شر ممزق .

كان محمد مثلا للاخلاص والوقوف بجانب الحق والعدالة فى كل ما يفعله وكل مايقول . وكل مايفكر فيه ، كان دائم التفكير محباً للصمت لا يتكلم إلا إذا كان هناك ما يدعو إلى الكلام ، وإذا تكلم كان حكيما فى أقواله ، سديداً فى آرائه ، مخلصاً الإخلاص كله ، يلقى النور على كل ما يعرض عليه من الأمور . كان رجلا كريم الخلق ، قوى الإرادة

والعزيمة ، ولم يفكر فى منفعته الشخصية ، كان يفكر فى غيره من الفقراء ، لم يكن مستبدا فى أحكامه ، بل مثلا للعدالة فى الحكم ، ينير الطريق لغيره ويرشد الضال ، وينشر المحبة بين الناس ، ولم يكن محباً لنفسه ، بل كان محباً لغيره أميناً فى أداء رسالته .

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمد رجلا كاذباً ، متصنعاً ، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أوطمع ، والرسالة التى أداها ليست إلا الصدق والحق ، وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول ، وماهو إلا شهاب أضاء العالم أجمع (١) .

ويقول « جونسون » فى كتابه « الديانات الشرقية » إن التجاوب الطبيعى بين نظرة محمد الواسعة إلى الذات الإلهية ، وبين الجو الفسيح الذى كان يغدو ويروح فيه هو التفسير الوحيد لما استقبل به المشاهد الهائلة التى رآها من هدوء ورباطة جأش عجيبين ، ثم يمضى قائلا : ليس بمستغرب أن تخرج أعظم قوة فى ذلك العصر من فلوات الجزيرة العربية التى كانت الأمم حولها فى مد وجزر ، فقد كانت الصحراء على الدوام هى المكان التى انبعث فيه صيحات الأنبياء الذين جاءوا من عند الله .

لقد أضفى السيد المسيح على الجزيرة العربية معنى رمزيا حين آوى إلى البرية لمناجاة ربه ، ولكن محمدا جعل هذا الرمز معنى حقيقياً ، فقد كانت الجزيرة العربية نفسها هى رجل الساعة ، وكان نبي الإسلام كلمتها الجامعة ، إذ أفضت الصحراء بذات صدرها إلى ابنها الفذ الذى تحلى

(١) Haros and hero Warship : Tomas caryle

بتقاليدها الرفيعة ، ودفعه واقع باطنى قاهر إلى الخلوة فى ليلة طلعت فيها النجوم ، وهو يصغى إلى حديثها دون أن ينبس ببنت شفة .

لقد كانت حياته سجلا حافلا برسالة جليلة الشأن لا يعادلها فى جلالها شىء ، أداها بكل نبل وإخلاص ، فنفخ الحياة فى شعب غارق فى سباته وجمع شتات القبائل المتنازعة فخلق منها أمة يحدوها إلى العمل تطلعها إلى نعيم الأبد ، وجاء بشريعة عامة اجتمع فيها ما تفرق من أنوار الهداية التى نزلت على قلوب الأنبياء ، هذه هى الرسالة التى أداها وقد أداها بهمة وغيرة لا تعرف الأنانية .

ولقد آل الدين الذى دعا إلى التوحيد على شواطىء الجليل إلى عبادة الإله المتجسد ، أما نزيل حراء الذى ولد فى أمة تأصلت فيها عبادة الأديان فقد استطاع أن يطبع فى نفوس القوم الذى سمعوا صوته عقيدة التوحيد والمساواة بصورة لا تمحوها الأيام ، ونبه الأذهان بصيحته الديمقراطية إلى إعلان الثورة على طغيان الكهنة والحكام ، وحطم نظام الطبقات والامتيازات الخاصة ، فى ذلك العالم الذى سادت فيه المذاهب المتنافرة ، والنظم الجائرة ، واشتدت فيه وطأة العقائد الباطلة على نفوس البشر ، وداس فيه أرباب المصالح المكتسبة على رقاب الناس ونفخ فى العناكب التى نسجتها يد المصالح الذاتية فى طريق الإنسان إلى الله نفخة واحدة فحيلها هباء منثورا وألغى كل امتياز وخصوصية فى علاقة الإنسان بربه وأشاد هذا النبي الأمى الذى بعثه الله لعامة البشر بقيمة العلم والمعرفة .

ويخلص مؤلف كتاب « الديانات الشرقية » إلى القول بأنه مما لا شك فيه أن دعوته الدائمة لتحكيم العقل والوجدان ونظرته الديمقراطية الخاصة إلى الحكومة الدينية ، وعموم رسالته ، واعتقاده بأنه بشر ، كل أولئك يدل على الفرق الشائع بين آرائه وآراء من تقدموه ، والشبه الكبير بينها وبين آراء العالم الحديث ، ثم إن تاريخ حياته ورسالته واضح لا تكتنفه الغموض ، وشخصيته حقيقية لم تنسج من حولها قصة خيالية .

أما سير « وليام موير » فيقول فى كتابه « حياة محمد » : امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه ، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب فلم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل « محمد » ، ولا عجب فمحمد صنع أمة ملأ ذكرها التاريخ ، وأحيا قوماً كانوا جفاة ليس لهم حظ من علم ، صنع أمه فملأ الأرض علماً ونورا وعرفانا وأدهشوا الأمم العريقة فى الحضارة الراسخة القدم فى العمران(١) .

ويقول اللورد (هدلى) أن رسالة محمد رسالة إلهية صادقة لاريب فيها هدى للمتقين . أوصى الله بها إليه ، فجاءت مخففة لصرامة أحكام التوراه مكملة لكتاب المسيح ، كما كان محمدا إلى الرحمة والعدل والكرم والشجاعة والصبر على المكاره والصدق والأمانة ، يعتقد أن الدين هو أقرب الأشياء إلى العقل والى الطبيعة ، وان الإنسان ما هو إلا مظهر

(١) Life of Hohamed : Sir Tomas Hayer.

من مظاهر الله ، وكان غيورا متحمساً وكانت غيرته وحماسه لغرض نبيل ومعنى سام ، ولقد كانت تعاليم محمد قليلة وبسيطة ، ولكنها أنتجت ثمارا عظيمة .

أما « أرنست رينان » فيقول فى كتابه (تعليقاتى على تواريخ الأديان) : لقد دلتنى تحرياتى العلمية والتاريخية على أنه لا صحة مطلقا لما أريد إلصاقه بالنبى محمد من كذب وافتراء مصدرهما بعض المباينات العرقية والعادات القومية التى أراد بعض المتحاملين أن يتوجهوا بها إلى الناحية التى تشفى سقام إذ هنتهم الوقحة وتعصبهم الذميم كقولهم : إنه كان يميل إلى التسيد والسيطرة ، مع أن محمداً وكما أثبتت الوثائق التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك بريئاً من روح الكبرياء متواضعا أمينا لا يحمل الحقد لأحد ، وكانت طباعه نبيلة ، وقلبه طاهراً ورقيق الشعور .

والفيلسوف المؤرخ « لين بول » فيقول : أن محمداً كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق حتى أن الإنسان لايستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات فى نفسه من أثر ، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً عن غير ميل أو هوى ، كيف لا وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته أعواما فلم يهن له عزم ولا ضعفت له قوة ، وبلغ من نبله إنه لم يكن فى حياته البادىء بسحب يده من يد مصافحه ، حتى ولو كان المصافح طفلا ، وإنه لم يمر بجماعة يوما — رجالا كانوا أو أطفالا — دون أن يقرأهم السلام وعلى

شفتيه إبتسامة حلوة ، وفى فمه نغمة جميلة كانت تكفى وحدها لتسحر سامعها وتجذب القلوب إلى صاحبها جذباً .

والمستشرق « أميل ديبر مانجيم » كما كتب عن القرآن كتب أيضاً عن نبى الإسلام وقد سلك فى الإسلام طريقا وسطا ، ووفق إلى كثير من الحقائق ، ومما قاله فى كتاب «حياة محمد» أن محمدا قد أبدى فى أغلب حياته إعتدالا لافتاً للنظر ، فقد برهن فى إنتصاره النهائى على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثال فى التاريخ ، إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء ، والمسنين والأطفال والنساء وحذرهم أن يهدموا البيوت أو يسلبوا التجار أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا فى حالة الضرورة القاهرة ، بل لقد رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً ماديا ويقول لهم : إن نفساً واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء .

إن الغنائم الحربية كانت فى ذلك العهد النتيجة العامة لكل جهاد بل يمكن أن يقال . إنها كانت مع التجارة وتربية الحيوان هى الصناعة الوطنية العربية فأعلن محمد إباحتها لأتباعه استجابة لضعفهم ولكنه حددها بقواعد دقيقة ، فخصص الجزء الأكبر منها للصدقات ولحاجات الجيش ، وإنه قد حذر فى قسم الأسرى إبعاد الأطفال عن أمهاتهم ، أنه لم يكن ليستطيع أن يغير أخلاق شعبه تغييرا تاماً ، ولكنه نجح فى أن يقومه فى نقاط كثيرة .

أنه شخصياً لم يكن إلا رجلا أميا خلوا من الثقافة تقريباً كجميع بنى جلدته فى عصره ، ولكنه كان يعلم أن إلا له رحيم رحمه لا حد لها

فأجهد نفسه فى أن يعلو على الطبيعة البشرية ، وأن يقهر فى نفسه الميول الانتقامية . وهو فى هذا يقول : كاد الحليم أن يكون نبياً .

بل يمكن أن تكون آلامه التى كان يعانيها ناشئة من أنه لم يحقق الكمال الذى كان يبغيه . إن إخلاصه لا يمكن أن يكون فى العصر الحاضر موضع شك ، فإن حياته كلها تشهد أنه كان يؤمن برسالته إيماناً عميقاً وأنه تقبلها — لا بغير بطوله — بل كعبء يجب عليه أن يحتمل ثقل أوزارها .

إن قوة عبقريته الانشائية واتساعها وذكاءه العظيم، ونظره الصائب إلى الحقائق ، وسيادته لنفسه وقوة إرادته وحكمته واستعداده للعمل ، وحياته الواقعية . كل ذلك يجعل الزيف فى مبدأ رسالته يستحيل القول به ، فكيف يتصور أن ينقلب كاذباً فجأة ذلك الذى نجاحه يظهر له كبرهان ساطع على تأييد الإله لدعواه ! وكيف يمكن أن يجرؤ على تشويه رسالته فى الوقت الذى كان يرى فيه إنها مقدسة مؤيده من الإله ! .

هكذا نهض محمد ليدعو بنى جنسه إلى دين واحد هو دين الإله الواحد، وليوقظ جزءا من آسيا وأفريقيا، وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رسالته الحقيقية ، ولكى يحرر بلاد فارس التى كان النعاس يشملها، ولينعش المسيحية الشرقية التى شوهتها المجادلات البيزنطية الخالية من الحماسة ، ومن الاعتقاد المجرد من الوحدة .

من هؤلاء المستشرقون أيضا الكاتب الانجليزى « ه.ج » ويلز الذى قال : إن من أدفع الأدلة على صدق « محمد » كون أهله وأقرب الناس

إليه يؤمنون به ، فقد كانوا مطلعين على أسراره ، ولو شكوا فى صدقه لما آمنوا به .

وقال فنلى « فى كتابه » «اليونان تحت حكم الرومان» : إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم وأثبت البلدان قدما فى القانون مدى أجيالا طويلة فى شتى نواحى الهيكل الاجتماعى دليل على أن هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات ممتازة .

والشاعر الفرنسى « الفونس لامارتين » الذى عرف بحبه للشرق وتعمقه فى الدراسات الشرقية والإسلامية فيقول : إن حياة مثل حياة « محمد » ، وقوه كقوة تأمله وتفكيره وجهاده وثباته على خرافات أمته وخاهلية شعبه ، وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته ، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية ، إن كل ذلك أدله على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ، فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرع وهادى الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ومؤسس دين لافرية فيه ولاصور ومنشىء عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد ، فأى رجل أدرك العظمة الإنسانية مثل ما أدرك ، وأى إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ .

والفيلسوف الروسى « تولستوى » له رأى أيضا ، فهو يقول : وخلاصة الديانة التى نادى بها محمد هى أن الله واحد لا إله إلا هو ، ولذلك لا يجوز عبادة أرباب كثيرة ، وأن الله رحيم عادل ، وأن مصير

الانسان النهائى متوقف على الإنسان نفسه ، فإذا سار حسب شريعة الله وائتمر بأمره واجتنب نواهيه فإنه يظفر بالقوة فى الحياة الدنيا ويؤتى أجراً حسنا فى الحياة الآخرى وإن كل شىء فى هذه الدنيا زايل ولا يبقى إلا الله ذو الجلال، وإنه بدون الإيمان بالله وإتمام وصاياه لا يمكن أن تكون حياة حقيقية وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم ومحبة الله تكون فى الصلاة ، ومحبة الناس فى مشاركتهم فى السراء والضراء ومساعدتهم ، والصفح عن زلاتهم ، إن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية والابتعاد أيضا عن الملذات الأرضية ، وإنه يتحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ويعبدوه ، بل يجب عليهم أن يخدموا الروح والجسد معاً ، و « محمد » لم يقل عن نفسه إنه نبى الله الوحيدة ، بل أعتقد أيضا بنبوه موسى والمسيح وقال : إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم ، وفى سنى دعوة « محمد » احتمل كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانات القديمة شأن كل نبى مثله نادى أمته إلى الحق، ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه ، بل ثابر على دعوته فى قوة وثقة وإيمان لا مثيل له فى التاريخ ، ومما لا ريب فيه أن النبى محمداً من أعظم الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة ، ويكفيه فخراً إنه هدى مئات الملايين إلى نور الحق ، إلى السكينة والسلام، وفتح للانسانية طريقاً للحياة الروحية العالية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة وإلهاما وعونا من السماء .

والعالم الهندى « ت . ل نوان » يقول : تأملت أمر محمد فتعجبت من هذا الرجل العظيم الذى نشأ بين هؤلاء القوم المختلى النظام ، والفاسدى الأخلاق ، العابدى الأحجار . هذا الرجل وقف تقريبا وحده شجاعاً ، متحديا غير هياب ولا وجل فى وجه التوحد بالقتل ، فمن أعطاه القوة التى قام بها ، كان بطلا من أبطال الأساطير ، ثم استمعوا لكلامه ، فمن أين جاء سحر بيانه ؟ ثم أنظروا إلى أعماله ، كيف ألف بين النبلاء والإشراف والصعاليك المنبوذين حتى صاروا إخوانا وخلانا ؟ فنحن هنا فى الهند إلى الآن لا نزال نقتل من أجل جواز لمس البعض البعض الآخر، ولا نزال عاجزين عن إباحة الدخول إلى بيوت الآلهة للمنبوذين من أبناء جلدتنا فمن أين استمد « محمد » قوة حياته العالية ؟ الهند الآن مصابه بشرب الخمر ، والرجل « محمد » كما تقول الكتب أقترح مقاطعة الخمر وكل شراب مسكر ، فقام أصحابه وألقوا دنان الخمر فى أزقة المدينة وحطموها تحطيماً .

لقد كان تصرف محمد فى قومه كالتنويم المغناطيسى ، فمن أين جاءه سر هذه القوة . ؟

ألم تر أنهم كانوا أشتاتا قد عمتهم الفوضى فألف بين قلوبهم وجعلهم أمة واحدة ، وكانوا راسخين فى التوجس فرفعهم وأنقدهم وجعلهم عظماء أقوياء فى عين أمم الأرض كلها وصارت الأمة العربية صاحبة القيادة وصارت اللغة العربية آخذه بيمينها مصباح التهذيب والرقى .

إن هذه القوة العظيمة لمستمدة حقا من عالم الغيب الأزلى الأبدى .

أما الفيلسوف « فيليب جيبس » فى كتابه « عظمة محمد » فيقول : لقد فعل الاسلام ـ ديانة محمد ـ للنهوض بالانسانية والمدنية ما لم تفعله أى ديانة أخرى منذ بداية الخليقة .وفى القرون الماضية الحالية ، وفى القرن الحالى قد اعتمدت مئات الملايين من الناس على الاسلام ، ولا يزال الاسلام قوة كبيرة يعتمدون عليها ، ولولا التعاليم الاسلامية المثالية العظيمة لعادت البشرية بلا ريب . إلى العصور الوحشية المظلمة » .

ويقول الكاتب العالمى « برنارد شو » : كنت على الدوام أنزل ديانة محمد منزلة كبيرة من الإعزاز والإكبار لعظمته التى لا تنكر ، أننى أعتقد أن دين محمد هو الدين الوحيد الذى يناسب كل إنسان ويصلح لكل زمان ، ويتمشى مع كل بيئة فى هذا العالم ، وفى كل مرحلة من الحياة ، وأننى أتنبأ بأن دين محمد سيلقى القبول فى أوربا غداً ، كما يلقاه فيها الآن .

مما تقدم يتبين لنا أنه لو كان أمر الدعوة الاسلامية إلى « محمد » لما سلك بها هذا المسلك ، ولما سار بها على هذا النهج الذى سارت فيه ولكان لها مذاهب وطرق أخرى تسير فيها حيث تبدو أقرب إلى منطق العقل ، وإلى داعى الواقع .

لو كان أمر الدعوة الاسلامية إلى محمد لجاء إلى قومه من أول الأمر بدين عربى خالص يأخذ شريعته من عادات الأمة العربية وتقاليدها دون أن يلجأ إلى أهل الكتاب يزكى شريعتهم ، ويفرق بينهم وبين قومه المشركين الأمر الذى يباعد بينه وبينهم بما يثير فيهم عن دواعى العصبية

ونوازع الغيرة والحمية ، إذ كانوا يرون أنهم سادة الجزيرة العربية ، وليس لأهل الكتاب فى محيطهم شأن ، ولا لوجودهم حساب عندهم .

لو كان أمر الدعوة الاسلامية من عمل «محمد» وتدبيره ، أكان يلقى قومه من أول دعوته بهذا الموقف الحاد الذى جعل شقة الخلاف بينه وبينهم على هذا الوضع الذى ثارت به ثائرة قريش ، والذى استقبل به المسلمون فى ضعفهم وقلة عددهم ما استقبلوا به من بلاء واضطهاد حتى أخرجوا من ديارهم ، وفارقوا أهلهم وأوطانهم فرارا بدينهم وطلبا للنجاة من الهلاك المحيط بهم . أكان من الحكمة والتدبر أن تدخل الدعوة الاسلامية على قريش هذا المدخل الذى تواجه فيه باطلهم مواجهة صريحة متحدية فاضحة لهذا الباطل ، مسفهة لتلك العقول التى تقيم وجودها عليه وتغتذى منه ، ثم تعود هذه الدعوة بعد أن تدفع الباطل وتهزمه هزيمة منكرة فاضحة تعود إلى مهادنته وملاطفته ، وتلتقى بهؤلاء المبطلين بعد أن تخلوا عن باطلهم فتردهم إليه وتقيم لهم شريعة منه ؟ أذلك مما يقبله عقل ويسوغه منطق ، وإذن ففيم كان هذا الصراع المرير بين النبى وقومه ، ولماذا كان هذا الاصرار الراسخ منه على موقفه منهم ومن معبوداتهم وعاداتهم حتى تقطعت بينه وبينهم الأرحام وتمزق الشمل .

لو كانت الدعوة الإسلامية من عمل محمد ولحسابه لكان له من تلك الانتصارات التى حققتها الدعوة ، والتى وضعت الجزيرة العربية كلها بين يديه ، لكان له من ذلك عائدة تعود عليه ، شأن كل مغامر أو فاتح أو زعيم ، ولكان له من ذلك السلطان المتمكن من مظاهره المادية كلها

فيعيش عيش الملوك والقياصرة ويحف به النعيم ، وتحتشد له الحشد والحزم . ولكن « محمداً » عاش إلى آخر أيامه فى هذه الدنيا عيش الكفاف ، فما شبع من طعام قط ، ودرعه مرهون عند يهودى .

كان يركب الحمار عرياً ليس عليه شىء . ويخصف النعل ، ويرقع القميص ويلبس الصوف ويقول : من رغب عن سنتى فليس منى .

كان لا يأكل وحده ، كان يأكل مع خادمه .

كان إذا تغدى لم يتعش ، وإذا تعشى لم يتغد .

كان لا يجد من الدقل (أردأ التمر) ما يملأ بطنه .

كان يشد صلبه بالحجر من الغرث (الجوع) .

كان إذا جاءه مال لم يبته ولم يقبله ، أى لم يمسكه إلى الليل أو الظهر بل يفرقه فى وقته .

كان أخف الناس صلاة على الناس ، وأطول الناس صلاة لنفسه .

كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضى له حاجته .

كان يجلس مع الفقراء ويمشى خلف الجنائز .

كان يمنع أهله (أزواجه) لبس الحلية والحرير .

كان يجلس على الأرض ، ويأكل على الأرض، ويجيب دعوة المملوك من خبز الشعير .

كان لا يدعوه أحد إلا قال : لبيك :

أفهذا العزوف عن الدنيا ، وذلك التعفف عن الجاه والسلطان فيها

يكون من إنسان قام بدعوة لحسابه، وبذل لها أعز ما عنده وأغلى ما يملك وضحى فى سبيل ذلك بالاحباب والأعزاء من أهله ؟

أذلك يكون إلا إذا وقع لحساب المبدأ أو العقيدة، وفى سبيل الحق الذى قامت عليه السموات والأرض ؟ إن ذلك هو سبيل الراشدين من دعاة الإصلاح وأنصار المثل العليا .

— كما تشهد — ولن يستكثر على محمد كما تشهد سيرته — وكما سجل التاريخ أن يكون فى مقدمة هذا الركب الكريم من أنبياء الله ورسله الكرام .

لقد بذر الإسلام بذوره الأولى فى أقفر مكان وأجد به، وفى أقسى قلوب وأصلدها، وفى أظلم عقول وأضلها ؟ ثم لم يمض جيل من أجيال الناس حتى أثمر هذا البذر أطيب ثمرات الإنسان وأكرمها، فخرج فى جيل واحد من العلماء والفقهاء والساسة والقادة أعداد وفيرة يصلح كل فرد منها أن يكون قائد ركب الحياة كلها إلى مواطن الخير والفلاح .

لقد استطاع هذا الدين أن يجمع شتات أمة فرقها الظلم الاجتماعى، وألقت بها فى الجاهلية القبلية، فى أودية سحيقة من المنازعات والمشاحنات، تثار الحروب لأتفه الأسباب وتسفك الدماء بغير حق دستورها فى حياتها : أنصر أهلك ظالماً أو مظلوماً . بمعناها الجاهلى وهو التعصب للقريب ولو كان ظالماً — سلوكها فى حميتها وأد البنات مخافة العار أو الفقر .

قبائل متطاحنة فى جزيرة العرب، يأكل بعضها بعضاً، وهى تذل أمام حجر تصنعه أو صنم تعبده، فماذا فعل هذا النبي فى هذه البيئة التى

يعد انتصاره فيها معجزة من معجزاته، وآية من آياته ؟ حول النفوس من نزعة قبلية إلى فطرة إنسانية، ومن فرقة جاهلية إلى وحدة إسلامية، ومن سفك الدماء إلى تقدير لحرمتها، ومن تفاخر بالآباء إلى تفاضل بالأعمال ! وتحول دستورها : أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً إلى معنى آخر، معنى الضرب على يد الظالم، ولو كان أخاً أو أباً أو صديقاً أو عدواً .

لم تكن مبادىء الإسلام هذه فى أمة من الأمم، أو فى شعب من الشعوب، بل كانت فى الإنسان من حيث هو إنسان، فى قريش كما فى الفرس والروم والحبشة، فجمعت بيلال الحبشى مع عمر القرشى مع صهيب الرومى، ليقيم من ذلك شاهداً على أنه دين الإنسان من حيث هو إنسان، مجرداً من الجنس واللون والموطن .

ذلك هو الإسلام أفليس من العدوان على الحق، والتضييع للخير أن تكدر موارد هذا المورد العذب، أو تعمى سبله، وتطمس معالمه، ويضلل الناس عنه، ويحال بينهم وبينه بتلك الأراجيف وهذه المبطلات !

ثم هذا بنى الإسلام، ماذا جمع من أموال وحصل على ذهب وفضة

يقول « ميلتون » أطلقوا رياح جميع العقائد والأفكار لتعدو على وجه الأرض، ولتكن الحقيقة فى المعركة فإننا بحظرنا لها وتحكمنا فيها نرتكب إثماً ونصنع أذى كبيراً .

دعوها تتصارع مع الكذب، فهل رأى أحدكم الحقيقة يوماً قد خسرت قضيتها فى صراع حر مكشوف ؟ !

أفيحسب فى المخادعين والكذابين والمضللين من يرد كل هذه الدنيا التى وضعت بين يديه ؟ وماذا يبغى المخاتل بختله والكذاب بكذبه والمنافق بنفاقه ؟ وماذا يريد هؤلاء إلا أن يفيدوا مالا أو يحصلوا ثراء ، ولقد عرفت الدنيا كيف كان طعام محمد ، وكيف كان لباسه وكيف كان مأواه وفراشه .

أما ماخلفه وراءه من طعام الدنيا فلا شىء إلا درعاً مرهونة عند يهودى فى قوته وقوت أهله .

ثم كان أن حسم الأمر جميعه فيما فرض على ورثته من بعده ألا يرثوا شيئاً من مخلفاته — إن ترك وراءه مايورث — فقال : نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه فهو صدقة ، وهنا برهن على أنه ليس لأهله وإنما هو للمسلمين ، حياته لهم وموته لهم ، وكفاحه من أجلهم ، دون هدف ذاتى أو منفعة خاصة .

فلئن كان هذا الجهاد الذى جاهد ، وهذا الضر الذى وجد ، وهذا الأذى الذى احتمل ، أنه لله وفى سبيل الله ، والحق الذى بين يديه ، وفى سبيل الأمانه التى حملته السماء إياها وكلفته أداءها إلى الناس جميعاً .

ولو لم يكن « محمداً » نبياً ، أفما كان من حقه على الإنسانية كإنسان أن يكرم وأن يمجد ، وأن تكون سيرته فى مسمع الحياة وبصرها آية للمتوسمين ، ودرساً للدارسين ، وقدوة للمقتدين . لهذه المعانى الكريمة التى اشتمل عليها ، ولهذه المثل العليا التى عاش بها ، ولهذا السمو الروحى الذى حلق فيه .

فأى خير فى الدنيــا ، وأى صلاح يرجى إذا كان حظ العاملين المخلصين الشرفاء الأطهار أن يلقوا من الناس إنكاراً وجحوداً وأن يكون فى الناس من يلفق لهم الأكاذيب ويزيف عليهم الأباطيل ومع هذا فإن الخير هو خير حيث كان ، وأن الكلمة الطيبة لاتسقط أبداً . إنها كالشجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

وقد وفى الله سبحانه « محمدا » أجره وأجزل له العطاء ، ومكن دعوته فى الحياة ، وجمع قلوب الملايين من الناس على حبه والولاء له جيلا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هل بشرت الأناجيل بمحمد؟

لم يختلف الناس قدر اختلافهم حول طبيعة المسيح ، منهم من يرى أنه الله ، ومنهم من يرى أنه ليس إلا رسولا جاء ليحقق إرادة الله وينادى بما نادى به جميع الرسل ، والعجيب فى الأمر أن كلا الفريقين يتخذ من الآيات التى جاءت على لسان السيد المسيح فى الأناجيل الأربعة حجة يدلل بها على صدق دعواه .

وكما اختلفوا حول هذا الموضوع ، اختلفوا أيضاً حول بعض الآيات التى وردت فى الكتاب المقدس والتى تبشر بمجىء « مسيا »(١) آخر غير المسيح . فريق يرى أن هذا الـ « مسيا » الآخر هو محمد بن عبد الله ، وفريق يقول أنه لا صلة بين هذه الآيات وبين نبى الإسلام .

ولقد قمت بدورى بمحاولة تلمس الحقيقة فى هذين الرايين متمسكا بمبدأ الحيدة ، متجنباً النزعة التزمتية ، مستهدفا الحقيقة أياً كانت ، وقد انتهيت إلى ما وجدت أنه حق وأنه صواب ، وهو أنه على فرض أن هناك آيات ليس المقصود بها البشارة بمجىء « محمد » فإنه مما لا يحتمل الشك

(١) مسيا كلمة آرامية بمعنى رسول .

أن هناك آيات لا تحتاج إلى تأويل أو تفسير فى أن القادم من نسل اسماعيل هو النبى المنتظر . وسنحاول هنا أن نعرض لأهم هذه البشارات تاركين الكلمة الأخيرة للقارىء .

فى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية فى الترجمة العربية المطبوعة عام ١٨٤٤ قوله : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعير وتلألأ من جبل فاران ، ومعه ألوف الأطهار فى يمينه سنه من نار (١) . فمجيئه من سيناء أعطاءه التوراة لموسى ، وإشراقه من ساعير إعطاءه الإنجيل للمسيح ، واستعلائه من جبل فاران إنزاله القرآن على محمد اما كيف تستدل على أن فاران هى الأرض التى سكنها اسماعيل جد الرسول . الدليل على هذا فى التوراة ، فالتوراة تقول أن هاجر كانت جارية لسارة ، ثم صارت زوجة لإبراهيم لإنجاب نسل له ، وظنت سارة أن مهمة هاجر أن تنجب نسلا مع بقائها جارية تسخرها كيفما شاءت ، وأنجبت هاجر إبناً لإبراهيم ، وكان هذا الإبن قرة عينيها وبهجة قلبها ، ولكن سيدتها حاولت إذلالها فاستجارت بزوجها إبراهيم ، لكنه تركها لسيدتها بقوله لها : هوذا جاريتك فاشتدت بها إيلاماً وإيذاء حتى هربت ترجو النجاة مما ألم بها ، فقابلها ملاك الرب فى الطريق

(١) ساغير : مدينة على بعد كيلو ونصف من مدينة بيت لحم وتسمى حالياً « بيت ساجير » أى مدينة الرعاة ، وفيها ظهرت الملائكة للرعاة يبشرون بمولد السيد المسيح وبها كنيسة محفورة فى الصخر تحت الأرض تسمى كنيسة الرعاة ، أما فاران فهى برية بين ثلاثة جبال بمكة هى : أبو قبيس وقيعان وجبل حراء وفيها سكن اسماعيل .

وقال لها ، مالك ياهاجر، شدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى برية فاران وكان ينمو رامى قوس ،واختارت له أمه زوجة من أرض مصر .

يتضح من التوراة إذن أن الذى سكن فاران هو إسماعيل :

« فى الآية العشرين، الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين وعد الله فى حق اسماعيل بن ابراهيم بقوله : وعلى اسماعيل استجبت لك ، هوذا أباركه وأكثره جدا فسيلد إثنى عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير » .

وفى قوله اجعله لشعب كبير يشير إلى محمد ، لأنه لم يكن فى أولاد اسماعيل من كان لشعب كبير غيره ، ثم يأتى دور تعزية الله لسيدنا ابراهيم عندما رأى إبنه البكر اسماعيل مطرودا أمام عينيه من وجه عبودية سارة بقوله . وابن الجارية أيضاً سأجعله أمه لأنه نسلك » (تكوين ٢١ : ١٣) .

هذا إذن هو إسماعيل جد محمد ، وهذا هو وعد الله فى العهد القديم فملاك الله يقول لهاجر : وكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة » .

جاء فى الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنيه قوله : قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا ، سرف أقيم لهم نبياً مثلك من بين أخوتهم واجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك .

فقوله سأقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم . أى قال الله لموسى أنه

أنه يرسل نبياً من بنى إسماعيل وهم إخوة بنى إسرائيل حيث هم من بنى اسحق أخى إسماعيل . وقوله (مثلك) أى بشريعة ذات المبدأ والمعاد والمعاملات ما يلائم عصره وإلى الأبد ، ولم يأت بعد موسى نبي مايشبه بشريعته من بنى إسحق وإسماعيل إلا محمد . وقوله (واجعل كلامى فى فمه) لأنه أمى لا يعلم الكتابة ولا يعرف الحروف قراءة .

٤ — فى كلام النبي أشعياء فى أصحاح ٢١ يقول « وحى من جهة بلاد العرب فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين ياقوافل الددانيين[1] هاتوا الماء لملاقاة العطشان ياسكان أرض تيماء [2] . وافو الهارب بخبز فانهم من أمام السيوف قد هربوا من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوى المشدود ومن أمام شدة الحرب [3] هكذا قال المسين مدة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار [4] وبقية عدد قسى بنى قيدار تتعال [5] لأن الرب إله إسرائيل .

— فى كلام النبي أشعيا فى الاصحاح الثانى والأربعين قوله : هو ذا الأوليات قد أتت ، والحديثات أنا مخبر بها قبل أن تنبت أعلمكم بها ، سبحوا للرب تسبيحة جـــديدة ، تسبيحة من أقاصى الأرض أيها

---

(١) اد . ادد . أحد أجداد النبى محمد .
(٢) تيماء . قبيلة عربيـة بنى تميم من آل إسماعيل .
(٣) إشارة إلى هجرة النبى محمد .
(٤) قيدار . أحد أجداد النبى محمد .
(٥) تتعال تترفع وتزداد قوة .

المنحدرون فى البحر وماؤه والجزائر وسكانها ، لترفع البرية ومدنها صوتها فى البيوت التى سكنها قيدار ، سبحوا ياسكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا ، ليعطوا للرب كرامة ومجداً ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر الرب كجبار يخرج مثل رجل حروب . ينهض غيرته يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه . قد صمت مثل الدهر سكت تجلدت ، كالوالدة أصبح أنفخ وأنخر معاً ، أضرب الجبال والآكام وأجفف كل عشبها وأجعل الأنهار جزائر والبحيرات أجففها ، وأقود العمى فى طريق لم يعرفوها ، أجعل الظلمة أمامهم نوراً والصعب سهلا ، هذا الكلام صنعته لهم . لا أخذلهم ، ارتدوا إلى الوراء ، يخزى خزيا المتكلون على المنحوته ، القائلون للمسبوكة أنكم آلهتنا .

التسبيحة الجديدة ها هنا هى عبارة عن النهج الجديد التى هى فى الشريعة المحمدية وتعميمها فى مشارق الارض ومغاربها إشارة إلى عموم نبوته ، ولفظ « قيدار » أقوى إشارة إليه لانه من أولاد قيدار ابن إسماعيل .

وقوله من رؤوس الجبال يصيحون إشارة إلى العبادة المخصوصة التى تؤدى أيام الحج يصيح ألوف من الناس « لبيك اللهم لبيك » وقوله : ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر إشارة إلى الآذان يخبر به الملايين فى أقطار العالم فى الاوقات الخمس بالجهر . وقوله : الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغير يشير إلى مضمون الجهاد إشارة حسنة بأن جهاده وجهاد تابعيه يكون لله وبأمره خاليا من حظوظ الهوى النفسية ،

ثم إشارة إلى حال العرب حيث أنهم كانوا غير واقفين على أحكام الله ، وكانوا يعبدون الاصنام ، وكانوا مصابين بداء وهو أنواع الرسوم القبيحة الجاهلية . وقوله : لا أخذلهم . إشارة إلى كون أمته أمة رحيمة وإلى تأييد شريعته . وقوله : « والمتوكلون على المنحوته القائلين للمسبوكة أنكم آلهتنا ليخزون خزياً ، وعد بأن عابدى الأصنام والأوثان يحصل لهم الخزى والهزيمة التامة وقد وفى الله بما وعد ، ودخل محمد مكة فكسر أصنامها صائحا قائلا : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً :

— فى الاصحاح الرابع والخمسين من كتاب أشعيا قوله : سبحى أيتها العاقر التى لم تلد . أنشدى بالحمد وهللى التى لم تمخض من أجل أن الكثيرين من بنى الوحشة أفضل من بنى ذات بعل قال الرب ، أوسعى موضع خيمتك وسرادق مضاربك ابسطى ، طولى حبالك وثبتى أقدامك ، لانك تنفذين يمنه ويسره وزرعك يرث الارض ويعمر المدن الخربة ، لا تخافى لانك لا تخزين ولا تخجلين فانك لا تستحين من أجل أن خزى صباك تنسينه وعار ترملك لا تذكرين أيضا ، فانه يتولى عليك الذى صنعك رب الجنود اسمه ، وفاديك قدوس إسرائيل إله جميع الارض يدعى إنما الرب دعاك مثل إلا مرأة المطلقة والحزينة الروح وزوجته منذ الصبا مرذوله قال إلهك الساعة فى قليل تركتك وبرحمات عظيمة أجمعتك فى ساعة الغضب أخفيت قليلا وجهى عنك وبالرحمة الأبدية رحمتك قال فاديك الرب ، الجبال ترتجف والتلال تتزلزل ورحمتى لا تزول

عنك وعهد سلامى ، لا يتركك قال رحيمك الرب : فقبره مستأصلة بعاصف بلا تعزية ، ها أنذا ابنى بالأسمد حجارتك وأؤسسك بالسفير ، واجعل أبوابك حجارة منقوشة وجميع تخومك حجارة كريمة ، ها أنذا خلقت الحداد الذى ينفح الفحم فى النار جمراً ويخرج إناء لعمله وأنا خلقت المهلك ليخرب (٣ — ٧) .

والمقصود بالعاقر هنا فى الآية الاولى هى « مكة » لانه لم يظهر فيها نبى بعد إسماعيل ، ولم ينزل فيها وحى بعكس أورشليم التى ظهر فيها أنبياء كثيرون وكثر فيها نزول الوحى . و « بنو الوحشة » عبارة عن أولاد هاجر لأنها كانت بمنزله المطلقة المنبوذة المطرودة من البيت ساكنة للبرارى ، ولذلك وقع فى حق إسماعيل فى وعد الله لهاجر قوله : « هذا سيكون إنساناً وحشياً » كما جاء ذلك فى الباب السادس عشر من سفر التكوين . و « بنو ذات بعل » عبارة عن أولاد سارة فخاطب الله مكة آمراً لها بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر من أجل أن الكثيرين من أولادها صاروا أفضل من أولاد سارة وقد وفى الله بما وعد وأرسل « محمداً » من نسل إسماعيل . وهو المقصود بالصائغ الذى ينفخ فى النار جمراً ، وهو المهلك الذى خلق لإهلاك المشركين وعابدى الأصنام .

— فى سنة ٧٠١ قبل الميلاد . وفى أرض النبى فى بابل تنبأ أشعيا بمجىء محمد .. يقول : قومى استنيرى لأنه جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك لأنه ها هى الظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الامم ، أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى فتسير الأمم فى نورك ، والملوك

فى ضياء إشراقك ، ارفعى عينيك حواليك وانظرى قد اجتمعوا كلهم « جاءوا اليك ، يأتى بنوك من بعيد ، وتحمل بناتك على الأيدى حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول اليك ثروة البحر ، ويأتى اليك غنى الأمم ، تغطيك كثرة الجمال بكران مديان دعيقه كلها تأتى من شيئا تحمل ذهبا ولبانا وتبشر بتسابيح الرب وكل غنم قيدار تجتمع اليك وكباش بنايوت تخدمك . تصعد اليك مقبوله على مذبحى وازين بيت جمالى » (٦٠ : ١ — ٧) .

جاء فى سفر التكوين فى الاصحاح الخامس والعشرين فى نسب إسماعيل قوله : وهن أسماء بنى إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم . بنايوت بكر إسماعيل وقيدار واوبئيل وأيسام . . اثنى عشر رئيسا حسب قبائلهم . كما يزداد الآن وضوحاً عند ذكر هذه الرموز فى الآية مثل « كثرة الجمال » و « غنم قيدار » و « كباش بنايوت » .

— بشرى حزقيال النبى من بنى إسرائيل : « إن الذى يظهر من البادية كالكرمة أخرجت ثمارها وأغصانها عن مياه كثيرة ، وتفرعت منها أغصان مشرقة على أغصان الأكابر والسادات . وبقيت فلم تلبث تلك الكرمة قلعت بالسخطة ، وضربها على الأرض فأخرجت ثمارها وأتت نارها فأكلتها ، فكذلك غرس فى البدو فى الأرض المهملة المعطلة العطشى ، فى أرض غير ذى زرع ، وخرج أعضائه الفاضلة ناراً فأكلت ثمار تلك الكرمة حتى لم يبق منها عصا قوية ، ولا قضيب بأمر السلطان .

والمقصود بالبادية والأرض العطشى جزيرة العرب وأرض الحجاز أما المقصود « لم يبق منها عصا قوية » إشارة إلى العقائد التى كانت سائدة فى الحجاز والتى جاء الإسلام وقضى عليها .

— فى الاصحاح السابع من انجيل متى يقول السيد المسيح : احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة ، من ثمارهم تعرفونهم ، هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا . هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة ، أما الشجرة الرديئة فتصنع أثماراً رديئة . لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع ثمارا رديئة ، ولا شجرة رديئة أن تصنع أثماراً جيدة ، كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار فاذا من ثمارهم تعرفونهم » .

لم يقل السيد المسيح احترزوا من الأنبياء ، فيكون التقرير قاطعاً بأنه لم يعد هناك أنبياء بعده ، ثم أخبر بأن نمتحن الأنبياء من ثمارهم فكأن هناك أنبياء سنعرفهم من ثمارهم الرديئة وغيرهم من ثمارهم الجيدة ، وهذه بشارة بأن بعده سيكون أنبياء ونعرفهم من ثمارهم .

والقول بقيام أنبياء كذبه بعد المسيح لا يمنع من البحث الموضوعى الأمين فى دعاوى الرسالات بعد المسيح حتى يتبين الصادق من الكاذب ، والصحيح من الزائف ! فالمسيح قد تكلم عمن جاءوا قبله ، فوصف بعضهم بأنهم سراق ولصوص ، ولايعنى هذا طبعاً خلو الزمان قبله من النبوات الصادقة الصحيحة .

وما أدق من ميزان ذلك الذى نصبه المسيح ليفرق بين الأدعياء

والأصلاء . « السارق لا يأتى إلا ليسرق ويذبح ويهلك ، وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة ، وليكون لهم أفضل ... والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف ، أما الذى هو أجير وليس راعياً الذى ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلا ويترك الخراف » .

والمسلمون يرحبون بهذا الميزان ، لتعرض عليه سيرة نبيهم ورسالته .

بوسع المنصف أولا أن يبحث البحث الجاد فى حقيقة الإسلام ، فليس من دين يصد أهله عن البحث والنظر ...

وبوسع المنصف أخيراً أن يعتبر محمداً داعية خير ورشاد - إن لم يعتبروه نبياً مرسلا ، يؤكد أساس الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، ويدعو لمكارم الأخلاق ، ويقيم شريعة لا تتنكر لأصل من أصول الشرائع الإلهية ، ولا لمبدأ استقام أمام الفكر الانسانى .

— فى الفصل العاشر من أعمال الرسل جاء على لسان بطرس الرسول ففتح بطرس فاه وقال الحقيقة قد علمت أن الله لايحابى الوجوه ، ولكن فى كل أمة من اتقاه وعمل البر يكون مقبولا عنده : (٣٤ — ٣٥) .

ولعل ما ذكرناه من المبادىء التى تقوم عليها العقيدة الإسلامية والتطبيقات العملية لهذه المبادىء فى شتى المعاملات لخير دليل على أن هذا الدين من عند الله .

هناك بشارات أخرى غير معتمدة عند المسيحيين فى الوقت الحاضر

مثل إنجيل برنابا [١] الذى يتحدث صراحة عن مجيء (محمد) .

أما عن مضمون هذا الإنجيل فهو أنه مثل سائر الأناجيل الأربعة لـكنه يختلف عنها فى أنه يعترف صراحة بأن السيد المسيح رسول مثل غيره من الرسل ، ويعترف بوحدانية الله ، وأن هناك « مسيا » آخر سيأتى بعد صعود المسيح هو محمد بن عبد الله .

(١) اتفق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الإنجيل كانت نسخة مكتوبة باللغة الايطالية عثر عليها « كريمر » أحد مستشارى ملك بروسيا عام ١٧٠٩ وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٨٣٨ الى البلاط الملكى بفيينا . وكانت تلك النسخة هى الأصل لـكل نسخ هذا الإنجيل فى اللغات التى ترجم اليها . وقد آلت بعد ذلك الى راهب لاتينى يدعى « فرامينو » وهو يقص قصتها فيقول أنه عثر على رسائل لايريانوس وفيها رسالة يندد فيها بما كتبه بولس الرسول ويستند فى تنديده على إنجيل برنابا فدفعه حب الاستطلاع الى البحث عن إنجيل برنابا هذا وقد توصل الى مبتغاه لما صار أحد المقربين الى البابا « سكبش الخامس » . فقد عثر على ذلك الانجيل فى مكتبة هذا البابا .

الإرهاصات بالنبى محمد

أما إذا انتقلنا إلى الأشخاص الذين . تولوا التبشير بمجيء محمد نجد منهم الـكثير نذكر منهم على وجه الخصوص « بحيرا . الراهب الذى كان من أعظم من تولى تبشير الناس أن نبياً من بنى اسماعيل حان له أن يبعث بالاسم والصفات وحدد له مكان المطلع والمهجر ، ولم يكن من التوراة الأصيلة أن تخفى أو تنكر ، ولا من شأن رهبان الصوامع أن يضلوا أو يحسدوا ، لأن الله هو الذى قال الكلمة فى التوراة ، ولأن القسيسين والرهبان لايجحدون ولا يستكبرون .

ولا قدرة لقلوبنا ــ نحن الآن ــ ولا لعقولنا أن تحس أو تتصور مقدار الهداية فى قلب « بحيرا » النسطورى حين رأى « محمداً » وهو فى ظل شجرة قرب صومعته على طريق « بصرى » كما لانستطيع أن نقدر هذا الفوز فى الفراسة والذى أصبح إلى نهاية خلداً لاسم « بحيرا » الراهب ودلالة صدق ونبـل خلقه حين أوصى أبا طالب أن يعود بابن أخيه منثنياً من بصرى إلى أرض العرب خوفاً من اليهود ثم كان مادل عليه بحيرا صدقاً وعدلا .

هناك أيضاً ورقة بن نوفل الراهب المسيحى الذى عرف عنه أنه ممن درسوا المسيحية دراسة عميقة ، بل أنه نقل بعض الأناجيل الأربعة إلى العربية ، وكان هو ابن عم خديجة التى ذهبت لتخبره بما حدث لزوجها محمد فى الغار ، وأنه جاءه ملك يقول له « اقرأ » ولما سمع ورقه بن نوفل هذا منها أطرق ملياً وقال : قدوس قدوس . . . والذى نفس ورقه بيده لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى . وأنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . ولقى ورقة محمداً يطوف الكعبة بعد ذلك فقال له قوله المشهور « والذى نفسى بيده ، أنك لنبى هذه الأمة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه » وقبل رأسه وانصرف .

وهناك عبد الله بن سلام ، وكان حبراً عالماً قال : لما سمعت بمحمد عرفت صفته وإسمه وزمانه الذى كنا نتوقع له ، فكنت مسراً لذلك ، صامتاً عليه حتى قدم النبى المدينة ، فلما نزل بفناء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، فلما سمعت الخبر كبرت ، فقالت عمتى لى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله . والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت على ذلك . فقلت لها : أى عمة أهو والله أخو موسى ابن عمران وعلى دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت : أى ابن أخى أهو النبى الذى كنا نجد أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ فقلت لها : نعم ثم جئت رسول الله وقلت له . يارسول الله أن يهود قوم باطل ، وأنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك

كيف أنا فيهم ، فأدخلنى الرسول فى بعض بيوته ودخلوا ثم قال لهم : أى رجل الحصين بنى سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وجدنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم : يامعشر يهود اتقوا الله واقبلوا ماجاءكم به ، فوالله أنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة بإسمه وصفته ، وأنى أشهد أنه رسول الله وأصدقه وأعرفه .

« وسلمان الفارسى » أحد هؤلاء الذين جهدوا فى البحث عن الحقيقة ولد بفارس من أبوين مجوسيين ، فى بيت أحد الدهاقين (حكام القرى) وعاش يرفل فى الحرير ، ويملأ الذهب جيوبه ، وتملأ العبيد قصر أبيه ولكن ما إن شب عن الطوق حتى بدأ يساوره الشك فى أمر النار (آلهه وإله آبائه وأجداده . فالنار التى تصير إلى رماد لايمكن أن تكون إلها . . . إن الإله نور لا ينطفىء أبدا) .

رأى سلمان أباه مرة يجلد أحد عبيده فحاول منعه وصرخ فيه « يا أبتاه أنى أحس لفح السوط على ظهرى » فكانت القطيعة بينه وبين أبيه . . . وشك الفتى فى أن يكون هـذا هو الانسان الذى يتخيله فإنسانه الذى يعيش فى مخيلته يساويه فى كل شىء . . . ند وأخ له .

وانطلق سلمان من داره مخلفاً وراءه المال والجاه والسلطان .. ليبحث عن حقيقة نفسه ، ليبحث عن الله ، وعن الإنسان ،

وخرج لايلوى على شيء . . . أتصل بالنصارى واعتنق المسيحية قبل ظهور الإسلام . وتعرف عليه أحد الرهبان الأتقياء فى « عموريه » وعاش معه يكسبان من كد أيديهما ، ينسجان على النول ويبيعان ما ينسجانه . . « حتى إذا أحضرت الراهب الوفاة همس فى أذن «سلمان» بكلماته الأخيرة . نحن فى انتظار دين جديد يتمم الأديان السابقة ويكون خاتمتها ، أى نبى « والله لا أعلم اليوم أحدا من الناس على ما مثل ما كنا عليه حتى أمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أطل زمان نبى يبعث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب ، وهجرته إلى أرض بين خربتين بينهما نخل ، وبه علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة (١) فإن استطعت أن تلحق به فى تلك البلاد فافعل » ويمضى سلمان فى طريقه ، فيقع أسيراً فى يد اليهود ، ويصبح عبداً لهم ، ويذوق مرارة العبودية ، لكنهم لايستطيعون أن ينالوا من قوة روحه وإيمانه حتى يلقى النبى ويحضر معه غزوة الخندق التى أشار « سلمان » فيها على النبى بحفر الخندق الذى انتصر بسببه المسلمون .

وفى عهد عمر يعود سلمان إلى بلاده فارس فاتحاً يصحبه سعد بن أبى وقاص ويوليه عمر أمر المدائن التى كان يحكمها كسرى ملك الفرس وعاش « سلمان » خلال (ولايته) يأكل من نسيج الصوف والخوص ويوزع راتبه على فقراء المسلمين ، محذراً الفاتحين ، من الزخارف التى أسقطت أمبراطورية كسرى .

(١) كان بين كتفيه قطعة ناتئة على شكل تفاحة .

دين الله واحد

الوطن العربى بحدوده الحالية كان ولا يزال المناخ الدينى المنقطع النظير ، ففى هذا الوطن هبط الوحى أكثر من مرة ، وفى أكثر من بقعة ، وفى أرض هذا الوطن بنت كل من نعرف أسماءهم من الأنبياء والمرسلين .

وفى هذا الوطن انتشرت الأديان السماوية جميعها إلى كافة بقاع العالم ودان بها الكثيرون من سكان المعمورة .

ولسنا نعرف فى التاريخ وحياً هبط ، أو نبياً نبت ، أو رسولا بعث فى غير هذه الأرض العربية .

ففى هذه الأرض الطيبة غرست أشجار جميع الأديان ، فنمت وترعرعت وأثمرت وأتت أكلها .

وفى أعماق هذه الأرض امتدت جذور هذه الأديان ، وأصبحت من القوة والصلابة بحيث لا تزعزعها النكبات ، ولا تأتى عليها الأعاصير .

ومن ربوع هذا الوطن خرج المؤمنون بالأديان السماوية يضربون

فى الأرض ويبشرون لهذه الأديان ، وينشرون فى الناس قيماً دينية خالده هى قيم الحق والعدل ، وقيم المحبة والسلام .

وفى أرجائه ، وبين جنبانه ، تعايشت الأديان الكبرى الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام ، تعايشت لما بينها من روابط قوية متينة تجعلها فى جانب ، وبقية الأديان الأخرى فى جانب .

هذه الروابط القوية تنبت من وحدة الأصل ، ووحدة الهدف ، والتقارب القوى فى الكثير من بعض الطقوس والعادات .

والقرآن الكريم قد وقف من هذه المسائل موقفا تتجلى فيه نظرتان ، نظرة مثالية تتعايش فيها الأديان الثلاثة من حيث هى عقائد ، ونظرة عملية يتعايش فى اطار منها المعتنقون لهذه الأديان الثلاثة .

فمن حيث المصدر يمضى القرآن على أن الأديان السماوية جميعاً قد صدرت عن الذات الإلهية ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى يبعث الأنبياء ، ويرسل الرسل مبشرين منذرين .

هو الذى ينزل الكتب لإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

وهو الذى يرسل الرسل ليعلموا الناس الكتاب والحكمة .

وهو الذى يفعل كل ذلك من أجل تحقيق الحياة الأفضل للجنس البشرى والارتقاء به من مستوى حضارى إلى مستوى حضارى آخر .

هذه الوحدة فى المصدر ، وهذه الوحدة فى الهدف ، وهذا التتابع الزمنى فى بعثة الأنبياء والمرسلين ، وهذه الخطوات المرحلية فى سلم الارتقاء

الحضارى كانت لها ظواهر اجتماعية عنى بها وسجلها القرآن : يقول تعالى : «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .

ونشعر من هذه الآية بأن دين الله واحد . وبأن شرع الله واحد ، وأن ماوصى به جميع الأنبياء ، وأن هناك أصولا واحدة فى هذه الأديان جميعاً ، وأن هذه الوحدة فى الأصول قد صدرت عمن له حق تشريع الأديان وهو الله (١) .

يقول الله تعالى مخاطباً محمد : ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها . كما يقول « لقد جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » .

ونشعر نحن من هذه الآيات أن هناك إختلافاً فى هذه الشرائع ، فلكل نبى شريعة ومنهاج .

والحقيقة فى المسألة أن هناك نوعين من العناصر الدينية ، نوعاً ثابتاً مستقراً يوجد فى كل الأديان ، ونوعاً يناله التغيير والتجديد ويختلف فيما بين الأديان .

---

(١) هذا الرأى يتفق ورأى معظم العلماء المسلمين . يقول : سيد أمير على صاحب كتاب روح الاسلام : أننا إذا استثنينا عقيدة الأبوة الالهية ، لم نجد خلافا أساسيا بين المسيحية والاسلام ، فهما فى جوهرهما دين واحد وكلاهما وليد القوى الروحية المتشابهة فى الانسانية ، فأولهما احتجاج صارخ على المادية الصارمة السائدة بين اليهود والرومان ، وثانيهما ثورة على الوثنية العربية المتدهورة ، وعلى تقاليد العرب وأوابدهم .

والنوع الثابت المستقر هو الذى يتعلق بالذات الإلهية وبالغيبيات التى لا يعلمها إلا الله .

والنوع الثانى هو الذى يتعلق بالإنسان ويتغير بتغير الإنسان ، وهو الذى من أجله وضعت القاعدة الأصولية الذاهبة إلى أن الأحكام تتغير بتغير الأديان .

والعناصر الثابتة هى التى تشير اليها الآية القرآنية : إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

ويعلق صاحب تفسير المنار على هذه الآية بقوله :

الآية صريحة فى أن أصول دين الله على ألسنة جميع رسله هذه الثلاثة

الإيمان بالله .

الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء .

العمل الصالح .

فثمرة الإيمان منوطة بهذه الثلاثة .

أما العناصر المتغيرة فتمثل لها بالعبادات الدينية ، وبالتحليل والتحريم الدينى ، من حيث أنها تختلف فى دين عنها فى آخر ، وذلك لأنها مرتبطة دائماً وأبداً بالإنسان .

والقرآن الكريم قد دعا إلى تعايش سلمى بين هذه الأديان ، تعايش سلمى يقضى على التنازع وعلى الفرقة والانقسام .

فهو أولا يطلب إلى المسلمين أن يؤمنوا بجميع الأنبياء

والمرسلين وألا يفرقوا فى هذا الإيمان بين رسول ورسول .

يقول الله : قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل موسى وعيسى وإبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون »

وهو ثانيا يطلب إلى النبى أن يعرض على أهل الكتاب موقفاً يلتقى فيه الطرفان ، وترتفع فيه الخصومة ويتحقق بمقتضاه السلام .

يقول الله تعالى موجها النبى إلى هذا الموقف « قل : يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

غير أن هذه الدعوة القرآنية لم تلق آذانا صاغية من أهل الكتاب ، فقد بقوا على ماهم عليه من عدوان للنبى ، ومن عداوة بعضهم لبعض .

إن اليهود لم يؤمنوا بالمسيح ، كما لم يؤمنوا بمحمد ، وكانوا يقولون فيما حكى القرآن فيهم : ليست النصارى على شىء ، كما كان النصارى يقولون فيهم أيضا ، ليست اليهود على شىء ، ويعجب القرآن من موقف كل من الآخر حين يقول فى كلا الطرفين وهم يتلون الكتاب !

وأن المسيحيين لم يؤمنوا بمحمد .

أما المسلمون فطالبون — كما ذكرنا — بالإيمان بجميع الرسل ولا يفرقون فى ذلك بين الرسل .

والقرآن قد حدد موقف كل من اليهود والنصارى من نبى الإسلام ومن المسلمين ، لقد جعل عداوة اليهود هى العداوة الأولى ، وقدمها فى

الذكر على عداوة المشركين . وجعل النصارى أقرب الطوائف الدينية إلى المسلمين ، وعلل لذلك بما فى قلوبهم من مودة ورحمة .

وعادى القرآن اليهود من أجل معاداة اليهود للعذراء مريم وللسيد المسيح ذلك أن اليهود لم يعترفوا بميلاد السيد المسيح ولم يقبلوه ، بل اعتبروه ولادة غير شرعية . والقرآن الكريم هو وحده الذى تولى الدفاع عن المسيح ، وكشف الشبه عن شخصه الكريم ، ووضعه المقام المحمود والجدير به ، وقد ذكر ذلك القرآن فى أكثر من موضع منه أن المسيح تكلم فى المهد ، وذلك ليكون آية على طهر أمه وعفافها وبراءة عرضها من أن يعلق به شىء مما تلوكه الألسن ، وتوسوس به الظنون . فى البشارة الأولى التى تلقتها مريم من السماء يكشف لها الوحى عن وجه هذا الغلام الذى ستلده العذراء . هذا الميلاد العجيب : إذ قالت الملائكة يا مريم ، إن الله يبشرك بكلمة منه إسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيهاً فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » (آل عمران ٤٥ - ٤٦) .

وحين تم ما أراد الله لها وجاءها المخاض ، ووجدت نفسها أمام الأمر الواقع قالت : ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، فناداها من تحتها ألا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم إنسيا . . فأتت به قومها تحمله ، قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا ، يا أخت هارون

ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا ، فأشارت اليه ! قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال إنى عبد الله ، أتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتى ، ولم يجعلنى جباراً شقياً ، والسلام علىّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » !

فى هذا الموقف المتأزم جاءت المعجزة لتواجه القوم ، ولتخرس الألسنة المتطاولة ، ولتأخذ على المتقولين كل سبيل ، فهذا الذى ولد بغير أب قد نطق فى المهد وتكلم فى حال لا يتكلم فيها مثله فكان هذا الكلام فى المهد معجزة خارقة تتلاقى مع معجزة المولد من غير أب ، فأشارت إليه ! قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال : إنى عبد الله . أتانى الكتاب ... وجعلنى نبيا .

وكلام المسيح هنا واضح صريح على شاكله ما يتكلم قومه ، واللغة التى يتعاملون بها ، ففهموا عنه ما قال ، ولم يكن ذلك محتاجا إلى تأويل أو تخمين .

ومما قاله القرآن أيضا : قال كذلك الله يخلق مايشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل إنى قد جئتكم بآية من ربكم إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فانفخ فيه فيكون خيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمة والأبرص ، وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم (آل عمران ٤٩) .

هذه بعض الآيات التى ذكرها القرآن فى شأن المسيح ، فهو يرفع قدره ويعلى شأنه فى العالمين إلى حيث لايطاولها أحد ، ويزكيه ووالدته العذراء مريم ، ودفع عنه وعنها كل دنس ورجس يلحق بمولده الطهور ، المبرأ من كل تهمة ، فهو كلمة الله وروح منه ، وهذا ما حدا بالأستاذ « جوفرى بارندر » إلى أن يقول فى كتابه المسيح فى القرآن : « إن المسيح يرد ذكره دائماً فى القرآن مقرونا بالاحترام ، ولا نجد أى أثر لنقد ، ولا عجب فى ذلك فإنه مسيح الله » .

وهناك قول يدل على قيمة المسيح وعظمته فى الإسلام ، فقد قيل للنبى أن عيسى بن مريم كان يمشى على الماء ، فقال النبى : لو ازدادوا يقينا لمشى على الهواء .

ويحكى لنا التاريخ قصة تدل على هذا الاجلال . يقول ابن هشام : إن المسلمين الأول لما هاجروا إلى الحبشة بأمر الرسول محمد ، وأرادت قريش استرداد هؤلاء المسلمين أرسلت الداهية عمرو بن العاص ، وكان لم يدخل الإسلام بعد : فحاول هذه الداهية أن يوقع بين المسلمين وبين النجاشى امبراطور الحبشة المسيحى فقال له : إن هؤلاء المسلمين يقولون فى مريم قولا عظيما (مشينا) فاستدعاهم النجاشى وسألهم رأى الإسلام فى عيسى ابن مريم ، فتلا عليه جعفر بن أبى طالب المتحدث بها باسم المهاجرين سورة مريم ، فلما سمعها النجاشى بكى حتى اخضلت لحيته وبكى أساقفته (ابن هشام جزء ١ صفحة ٢١٣) .

يقول الله تعالى : لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا . اليهود

والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون » .

والواضح من هذه الآية أن القيم الدينية والتربية الدينية هى التى أملت على اتباع المسيح هذا الموقف أنهم لا يستكبرون ، ومن هنا يكونون أقرب إلى المسالمة ، لأن الكبر غير موجود حتى يدفعهم إلى موقف العداوة ، وهم أيضا أقرب إلى فكرة التعايش السلمى الذى يهدف أصلا إلى تحقيق المسالمة .

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده موقف من هذه الآية يلخصه فيما يلى :
أن النبى عليه السلام قد رأى هو ومن معه مودة من النصارى ، ولم تقم بينه وبينهم حروب ، وعلى العكس من ذلك اليهود الذين كادوا للنبى ووضعوا له السم فى الطعام وحاربوه .

إن النزاع بين النبى عليه السلام واليهود كان بسبب عدم التزام اليهود بالعهود والمواثيق ! فهم قوم لا يعرفون الالتزام الأخلاقى ! والالتزام العقائدى .
وأن الخطوات المرحلية فى التطور الحضارى تجعل المسيحيين أقرب إلى المسلمين ؛

كان المصلحون من الأنبياء يتعاهدون أهلها زمنا بعد زمن بالإصلاح المعنوى كالهبات مزامير داود ، وأدبيات حكم سليمان حتى لا تغلب على القوم المادة وتفسدهم الأثرة .

ثم جاء مصلح إسرائيل الأعظم — المسيح — فيقضى ما كانوا عليه من ذلك بدعوتهم إلى نقيضه أو ضده .

فقابل مبالغتهم فى المادية بالمبالغة فى الروحية .

ومبالغتهم فى الأثرة بالمبالغة فى الإيثار وإنكار الذات .

ومبالغتهم فى الجمود على ظواهر الشريعة بالمبالغة فى النظر إلى مقاصدها .

كره إليهم السيادة والغنى، وذم التمتع بنعيم الدنيا، وأمر بمحبة الأعداء.
كان ذلك كله تمهيداً لإكمال دين الله بإرسال محمد عليه السلام .

فمن لم يؤثر فيهم إصلاح المسيح بين اليهود ظلوا على جمودهم وأثرتهم وعصبيتهم وكانوا أشد عداوة للنبى العربى ومن آمن به .

كان المسيحيون ممن آثر فيهم إصلاح المسيح وكان منهم القسيسون والرهبان .

ومن أجل هذا كانوا أقرب مودة وصدق منهم قوله : وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق .

ولفيلسوف الشرق جمال الدين الأفغانى رأى أيضاً فى هذا الموضوع لا يحق لنا تجاهله .

كان غرض جمال الدين الأسمى فى حياته أن يعيش أهل الأرض فى صفاء ، لا بغضاء بينهم ولا شحناء ، ومن قوله فى ذلك :

رجعت لأهل الأرض ، وبحثت فى أهم ما فيه يختلفون فوجدته

(الدين) فأخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها بحثاً دقيقاً مجرداً من كل تقليد ، منصرفاً عن كل تقييد ، مطلقا للعقل سراحه .

فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان ، أن الأديان الثلاثة ، الموسوية ، والعيسوية ، والمحمدية على تمام الاتفاق فى المبدأ والغاية ، وإذا نقص فى الواحد شىء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية، وإذا تقادم العهد على الخلق وتمادوا فى الطغيان ، أو أساءت الكهان فهم الناموس ، أو أنقصوا من جوهره ، أتاهم رسول بإرفاء وتأييد فأكمل لهم ما أنقصوه ، وأتم بذاته ما أهملوه .

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قصد الله إلا واحداً ومشيئته إلا واحدة ، وكتب الوحى وما أنزل على الرسل لابد أن تكون متفقة فى القصد والغاية ، ولا يصح التباين فى جوهرها ، ولا أن يخالف بعضها بعضا .

فلننظر إلى الأمر الرئيسى الذى جاء فى التوراة فى أمر العبادة ـ وما أراد الله من عباده هناك ـ فنرى أن الله قد نادى موسى من جانب الطور وكلمه قائلا : إنى أنا الله ، لا رب سواى ، فاعبدنى ، أنت وبنى إسرائيل .

ومختصر ما ورد فيها : أن طاعة الله وعبادته ، والعمل بما يبلغه الرسول ، كل ذلك له فى الآخرة ثواب وسعادة سرمدية ، فضلا عن حاجة الدنيا .

ثم لننظر ما جاء فى الإنجيل ، وما قاله المسيح فنرى أنه قال بما معناه:

أعطيتنى سلطانا على كل جسد لأعطى حياة أبدية لكل من أعطيته ، وهذه الحياة الأبدية ، أن يعرفوا أنك أنت الإله الحقيق وحدك ، ويسوع هو المسيح الذى أرسلته (يوحنا ٢ ، ١٧/٢) .

فالعيسوية هى (ناموس) جاء متمما مكملا لما قبله من التوراة ، كما قال المسيح : جئت لأتمم الناموس لا لأنقضه .

ثم إذا نظرنا إلى المحمدية نرى القرآن مشحونا بتوحيد الله ولزوم طاعته وعبادته ، يقول: «قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به شيئا» و « الحمد لله رب العالمين » و « إياك نعبد وإياك نستعين » .

هكذا نرى الأديان الثلاثة متفقة فى الأمور التعبدية بلا أدنى تباين أو تخالف » .

ثم ننظر فى المعاملات ، وما أجيز منها فى تلك الأديان ، وما نهى عنه فيها ، فنرى أن ما جاء به موسى ، وما أمره الله به من الوصايا قد عمل بها المسيح ولم ينقض ، أو ينقص منها شيئا ، وكذلك محمد فإنه جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل (١) .

---

(١) خطرات جول الدين صفحة ٣١٣ ـ ٣١٤

المسيحيون ... ومحمد

المسلمون يقرأون فى كتابهم ثناء الله على المسيح ، وعلى العذراء مريم ، وعلى تلاميذ المسيح ، وهم لا يذكرون المسيح ، شأنهم مع كل الأنبياء ، إلا بالصلاة والتسليم ! !

والمسلمون يتفقون مع المسيحيين فى الإيمان بالله ـ عموما ـ واليوم الآخر .

ويتفقون معهم فى أن الدين دعوة للحياه بالمثل العليا الفاضلة فى كل مكان ... وليس مجرد طقوس مطمورة فى زوايا المعابد .

والمسلمون يتفقون مع المسيحيين على أن هدف الدين تقرير الاخاء البشرى ، وتحقيق التقدم الانسانى .

فهل الذين يتفقون فى هذا كله ، يعز عليهم أن يتعاونوا على إقامة المجتمع المتدين الفاضل والدفاع عن (التدين) كقضية فكرية إنسانية كبرى ؟ .

إن المسلمين الذين يكرمون المسيح ، أقرب للمسيحيين من الذين ينكرون الألوهية والنبوة على الاطلاق ، ويحاربون المسيحية والاسلام وكل الأديان !! نجد هذا الانكار فى كتابات كبار الفلاسفة والمفكرين أمثال : « برتراند رسل » الانجليزى ، « ليون جوتييه » الفرنسى و « ول ديورانت » وغيرهم كثيرين ممن طعنوا المسيحية فى معتقداتها طعنات قاتلة ، ومع ذلك فإن هذه الطعنات لم تبغضهم إلى قلوب المسيحيين . فهل يكون بدعا أن نرى المسلمين المؤمنين بنبوة المسيح أولى بالألفة والمودة .

لا ، ليس بدعاً أن نرى تفهما وتعاطفا يزداد بزيادة الوعى ، وتعميق المفاهيم المشتركة بين من يؤمنون بإله ابراهيم .

هذا التعاطف ، وهذه الألفة لها جذورها التاريخية فى أحداث لم يغفلها التاريخ توضح تقدير المسيحيين فى مصر والشام للسلمين ، وإيثارهم لهم على الروم البيزنطيين المسيحيين .

فلنقرأ ما كتبه مؤرخ إنجليزى مسيحى هو الدكتور الفرد . ج. بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » ، وهو يورد فيما كتبه نصوصا نقلها من المؤرخ المسيحى أبى الفرج (١٢٢٦ - ١٢٨٦) وهو مسيحى يعقوبى صار أسقفا فبطريركا ، وله (تاريخ الدول) بالعربية ، و(تاريخ الكنائس) بالسريانية .

فى سنة ٦٣١ هـ ذهب الامبراطور (هرقل) إلى هيرابوليس وبدأ

منها تحقيق ما كان يرجو إنقاذه من توحيد الكنيسة ، واختار اثناسيوس رئيسا لأساقفة انطاكية وجعل قيرس رئيسا لأساقفة الاسكندرية .

وكان الأمر فى بلاد الشام على ما كان عليه فى مصر ، إذ أخفق الامبراطور هناك فأراد حمل الناس على ما أراد بالاضطهاد ...

قال أبو الفرج : ولما شكا الناس إلى هرقل لم يجب جوابا .. ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب ، فعظمت نعمته لدينا إن أخرجنا من ظلم الروم ، وخلصنا من كراهيتهم الشديدة ، وعداواتهم المرة ، على أن كنائسنا لم ترجع إلينا . لأن العرب أبقوا كل طائفة من المسيحيين على ما كان فى يدها عند فتحهم للبلاد ! وأنه لمن المحزن أن يقرأ الإنسان مثل هذا الترحيب من قوم مسيحيين بحكم العرب ، وزعمهم أن ذلك كان تخليصاً لهم ساقه الله إليهم ليخرجهم من حكم إخوان لهم فى المسيحية ؟!

وهكذا نجد أيضا مطرانا نسطوريا - بعد أخذ دمشق بخمسة عشر عاما يقول فى كتابه : وهؤلاء العرب الذين أعطاهم الله السلطان فى أيامنا لا يحاربون دين المسيح ، بل هم يدافعون عن ديننا ويجلون قسوسنا وقديسينا ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا » .

أما الدول البيزنطية ، فقد ذاق المسيحيون المخالفين لمذهبها ألوان الاضطهاد المرير على أيدى رجالها .

« وابتدأ الاضطهاد الأعظم بعد مجمع الأسكندرية الذى عقده قيرس فى أكتوبر سنة ٦٣١ . جاء فى كتاب ساويرس : لقد كانت هذه السنون

هى المدة التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر ، وقد فتن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الاضطهاد والظلم ، ومن شدة العذاب الذى كان يوقعه هرقل بهم لكى يحولهم على رغمهم من مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية . فكان يعذب بعضهم ، ويعد البعض أحسن الجزاء ، ويمكر بالبعض ويخدعهم .

كان أخو بنيامين (البطريرك) ممن عذبوا ثم قتل غرقا، وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه فأخذ يحترق (حتى سال دهنه من جانبيه على الأرض) ـ كما يقول ساويرس أسقف الأشمونين القبطى الذى كتب تاريخ حياة البطاركة ـ ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه ، فخلعت أسنانه ، ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل . وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطىء ، ثم عرضوا عليه الحياة . إن هو آمن بما أقره مجلس خلقيدونية !! فعلوا ذلك ثلاثا . وهو يرفض فى كل مرة ، فرموا به فى البحر فمات غرقا !

ووضعت على مصر حماية الإسلام .. فأدى ذلك إلى تنفس الناس فى عباداتهم ، واختيار مايشاءونه فى تدينهم ... وأصبح القبط فى مأمن من الخوف الذى كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم ، أو إخفائها تقية ومداراة ، فعادت الحياة إلى مذهب القبط فى هذا الجو الجديد ـ جو الحرية الدينية ـ وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذى يحق له أن يكون مذهب الأمة السائدة . وقد قضى عمرو بن العاص بأنه كذلك ، وأنفذ قضاءه بأن كتب أمانا لبنيامين ـ البطريق ـ وأقر عودته . وقيل إن الذى

حدا بعمرو إلى المبادرة بهذا الأمر ما أبلغه إياه رجل اسمه سنوتيوس (أو هو شنوده) ،،. ولكن الموضع الذى كان به بنيامين كان مجهولا لا يعلم به أحد ، ولا يعرفه شنوده نفسه وعلى ذلك كان لا بد من كتابة أمر الأمان على هيئة كتاب لا تخصيص فيه وكانت صورته كما يلى (أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله ، فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ، ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته)

إذن فما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه ! فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم ، وهوت بهم إليه حماقة البيزنطيين ، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان ، وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين ، فأصبحوا وقد فك من قيدهم فى أمور الدنيا ، وأرخى من عنانهم ، وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حر وأمر طليق .

وقد يقال : إن حكامهم الجديدين قد أدخلوا إلى الأرض ديناً غريباً غير دين المسيح ، وهذا حق ، غير أنهم لم يروا فى ذلك ، إلا عدلا من الله ، إذ أجمع الناس على قول واحد فقالوا : ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون ، إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر ، وما أنزله بالقبط دولتهم على يد قيرس ، فقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم ، وفتح المسلمين لبلاد مصر هكذا كان الناس يرون ، وهكذا كانوا يحكمون (١) .

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة فريد أبو حديد .

وحول المعنى نفسه كتب باحث انجليزى آخر هو « توماس أرنولد » فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) وقد استطاع ميخائيل الأكبر بطريرك أنطاكية اليعقوبى أن يحبذ ـ فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ما كان قد كتبه إخوانه فى الدين ، وأن يرى أصبع الله فى الفتوح العربية حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الاسلامى بخمسة قرون !!

إن الجيش الاسلامى حين بلغ وادى الأردن وعسكر أبو عبيدة فى فحل ، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون : يا معشر المسلمين ! أنتم أحب الينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ! أنتم أوفى الينا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا !! وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الاغريق وعسفهم !!

لقد كان خوف الناس من أن يكرههم الامبراطور على اتباع مذهبه ، يجعل الوعد الذى قطعه المسلمون على أنفسهم بالحرية الدينية أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية ، ولم تكد المخاوف الأولى التى أثارها نزول جيش فاتح فى بلادهم تتبدد حتى أعقبها تحمس قوى لمصلحة العرب الفاتحين .

أما ولايات الدولة البيزنطية التى سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة !.. اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التى فرضت عليهم منعاً

لإثارة أى احتكاك بين اتباع الديانات المتنافسة ، أو إثارة أى تعصب نشأ عن إظهار الطقوس الدينية فى مظهر المفاخرة حتى لا يؤذى ذلك الشعور الاسلامى ، وتمكين الحكم على مدى هذا التسامح ـ الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع ـ من هذه العهود التى أعطاها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليها (١) .

هكذا استقبل المسيحيون الاسلام والمسلمين فى ديار مصر والشام.

وعاش المسلمون والمسيحيون معاً .

امتزجوا وتفاعلوا ... وصهرتهم الأحداث ...

امتزاجا لا يهمل قدر الدين ، فهؤلاء وهؤلاء متدينون ...

ولا تقوم على النفاق والمداهنة .. فهذا ما لا يرتضيه الاسلام ، ولا ترتضيه المسيحية .

وإنما يأتى التجاوب من أعماق النفس .

ويأتى التفاهم من الأصول الفكرية التى قررها المسيح ومحمد ، اللذان أبلغا رسالة الله إلى الناس ، كى يسعدوا دنياهم بهدى دينهم ... لا ليشقوا أنفسهم بالفرقة والشقاق .

إن الدين والتدين لأحوج إلى السلام الدينى فى حياة الأديان ذاتها منهما إلى أشياء أخرى تثبت بهما معالمها فى الوحدة .

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن .

لا أحسب أن قوة التجارب الماضية تبعد هذا السلام إلى حد الاستحالة بل هو ممكن وأن أعوزه غير قليل من الشجاعة ، شجاعة القوى المتكتلة فردية واجتماعية ، ومثل هذه القوى الشجاعة ـ شجاعة النفوس فى مقاومة هوائها وأخطائها (١) .

(١) من مقال سلام دينى . مجلة المجلة مايو ١٩٥٧

خاتمة

والآن ، وفى ختام البحث أود من القارىء أن يستعيد فى ذهنه ماقدمته ، وأن يتأمل فيه بروح حيادية منصفة ، وسيرى أننى ماقدمت إلا الحق والصدق ، ذلك أنه قد وضح لنا أن القرآن لايختلف فى مضمونه عن أى كتاب سماوى آخر وأنه يحوى آية صدقه بما اشتمل عليه من دعوة إلى الخير والصلاح ، وإلى الحق والعـدل ومحبة الله ، وإلى الأخوة الانسانية . واتضح لنا أيضاً أن دعوة نبى الإسلام لاتختلف فى جوهرها عن دعوة السيد المسيح ، دعوة إلى الحب والإخاء ، وإلى عبادة الله وحده ، كما لاتختلف عن دعوة سائر الأنبياء وهذا هو أساس العقيدة الذى لايستبدل ، أما التشريع الذى ينظم حياة الجماعة فهو الذى يتطور فى الرسالات الإلهية على أيدى الرسل تبعاً لمصلحة البشرية ودرجة نموها وتطور إدراكها . لذا فإن من يعترف بوحى إلى رسول من البشر لزمته الحجة ألا ينكر نزول الوحى على أى رسول من حيث المبدأ . وأن التفريق بين رسل الله والإيمان ببعضهم دون بعض رأى لايسنده منطق سليم ولا إيمان صحيح .

إن الرسالات الإلهية كلها تخاطب فى الإنسان فطرته التى فطره الله عليها ، إنها كلها تمجد الحق والعدل ، وتحارب نزعات الانحراف والفساد فلا عصبية لجنس أو لون ، ولا امتياز لأمة دون أمه إلا بالتقوى والعمل الصالح ولو أنصف الناس لأراحوا أنفسهم مما يكابدون من مشكلات دينية أو غير دينية صيرت حياتهم صراعا مميتا وشقاقا دائماً ، وتعصباً كريهاً لكل ما خلقه الآباء دون نظر فاحص أو تفكير سديد وذلك لأن وحدة الإله ووحدة العقيدة هى جوهر كل الرسالات السماوية .

لو عرف الناس ذلك وتوافقوا على فهمها لتعارفوا إن دين الله يجب أن يكون واحداً فى كل زمان ولا يقنوا أن رب نوح هو رب إبراهيم وموسى والمسيح ومحمد وغيرهم من الرسل ، وأن عباده جميعا أمام الله سواسية .

لو عرف الناس ذلك وأيقنوا معه أن الله خلق لهم ما فى الأرض جميعا وسخر لهم ما فى السموات والأرض ، وأنه لم يختص بشىء مما خلق أو سخر أهل دين من الأديان ، وإنما خلق ما فى الأرض للناس كافة . لو عرف الناس ذلك كله لتخلصوا من أهوائهم ومواريثهم الباليه ، ولاتجهوا جميعا وجهة صالحة طيبة ، ولآمنوا بأن من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها . وبهذا وحده تذوب العصبيات وتختفى الأحقاد ، ويلتقى الناس على طريق سوى يهدى التى هى أقوم .

جاء فى الاجتماع التاسع والأربعين بعد المائة المنعقد بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٦٥ بمدينة الفاتيكان ما يأتى : إن الأمم كلها أسرة واحدة

تنحدر من أصل واحد إذ أن الله قد أقام كل أمة من البشر على وجه الأرض كلها ، كما أن لها فى النهاية هدفاً واحداً هو الله الذى يشمل الجميع بعنايته وآيات لطفه وتدبيره الخلاصية .

وجاء فى فقرة أخرى : إن الكنيسة تنظر بعين أم الاكرام والإجلال إلى المسلمين الذين يعبدون الله الأحد الحى القيوم الرحمن القدير ، فاطر السماء والأرض الذى كلم البشر . فالمسلمون دأبهم الاستسلام من صميم نفوسهم لأحكام الله الخفية ، كما استسلم لله ابراهيم الذى يتخذونه لإيمانهم أسوة مستحبة . أجل أنهم لا يدينون بيسوع إلها ، ولكنهم يجلونه نبياً ، كما أنهم يكرمون والدته العذراء مريم ويتوجهون إليها أحيانا بخالص الدعاء وهم إلى ذلك يترقبون يوم الدين ، يوم يجازى الله الناس جميعا بعد أن يبعثون ، ومن ثم فهم يراعون مكارم الأخلاق ويعبدون الله خصوصاً بالصلاة والزكاة والصوم .

والكنيسة الكاثوليكية لا تنكر لشىء مما هو صحيح ومقدس فى هذا الدين وتنظر بإخلاص واحترام إلى هذه الشرائع ، وتستحث أبناءها على أن يشهدوا على إيمانهم بالجوار والتعاون مع أتباع هذا الدين والديانات الأخرى ، وأن يعترفوا بما لديهم من حسنات روحية وقيم إجتماعية وثقافية يعملون على صيانتها وتعزيزها . وإن خالفت فى كثير من القضايا ما تملكه الكنيسة وتقول به إلا أنها تحمل غالباً قبساً من تلك الحقيقة التى تنير كل الناس .

وفى نفس هذا الاتجاه يقول الدكتور « ميشال الحائك » (١) فى كتاب له بعنوان « المسيح أمام المسلمين » يقول : إن هناك فرضاً قاطعا على عنق المسيحيين وهو أن يقبلوا على تفهم الدين الإسلامى بإخلاص لمعتقد الغير وانفتاح على ما بينه وبين المسيحيين من قرب، ثم يقول « وفى زحمة هذه الأعاصير الهاوية على العالم من كل حدب وصوب ، لا بد للمؤمنين بإله « إبراهيم » من أن يقفوا صفاً واحداً للدفاع عن قضية الإيمان التى هى قضية الإنسان .

وهذا ما أريده تماما ، وهذا أملنا بل وأمل الإنسانية المتدينة فى أن يكون هناك المزيد من التسامح والتقارب بين مختلف الأديان . خصوصاً بين المسلمين والمسيحيين لما بينهم من روابط المودة والأخوة والأهداف المشتركة ، تفاديا لمزيد من الضحايا ، ضحايا التعصب الدينى والخلاف المذهبى ، والتماساً لشىء من التماسك فى مواجهة تيار الالحاد الضارى ، أنها دعوة إلى وحدة إنسانية شاملة فى ظل دين الله ، فليس مايدين به قوم من الأقوام من شرع الله الذى نزل على رسول من رسله بداعية لهم إلى الانعزال عن الأقوام الآخرين الذين جاءتهم رسل الله وكتب الله.

ولما كنا قد عرفنا مما سبق أن الدعوة الإسلامية لم تكن من عمل أحد ولا لحساب أحد ، وإنما هى دعوة سماوية تصل ما انقطع من دعوات السماء وفى رسالات المرسلين إبراهيم وموسى والمسيح ، فان الرسل جميعا إذن رسل الله ، والكتب كتب الله ، والشرع شرع الله ، والناس جميعاً

(١) دكتوراة فى اللاهوت وأستاذ بالمعهد الكاثوليكى بباريس .

عباد الله فكيف يساغ أن يكون الدين — مع هذا — مصدر تفرقة وداعية عداوة وبغضاء ؟! إن ذلك إن يكن فليس بما شرعه الله وأذن به ، وإنما هو بدع وضلال جاء به مبدعون وضلال .

إن العالم اليوم يمر بأخطر مرحلة فى حياته، أنه يعيش حياة طابعها القلق والتوجس من حرب مهلكة لا تدع حيوانا أو نباتا ، ومع ما حققه من نصر رائع باهر فى دنيا العلم والمخترعات فانه لم يحقق لنفسه أمنا معنويا واطمئنانا قلبيا ، لقد تحكمت فيه المادة تحكما أفقده الإحساس بقيمة الروح والسمو بها إلى آفاق عليا من التطهر والصفاء . هذه الحالة المؤلمة التى وصل اليها العالم اليوم لا منجاة له منها إلا بالاعتصام بحبل الله والرجوع إلى هدى الدين ووصل الناس ، والإيمان بان دين الله واحد ورسله جميعا بعثوا بالرحمة ودعوا إلى المحبة ، وأى تصور لحقيقة أية دعوة سماوية تقوم على غير هذا المفهوم هو تصور خاطىء وانحراف مضلل للدعوة من شأنه أن يعكر صفوها ويكدر مواردها ويصد الناس عنها .

وأخيراً فان الحق أحق أن يتبع ، وقد قدمت ما اعتقدت أنه حق وصدق . لقد درست وبحثت ، وكان هدفى معرفة الحقيقة التى يطمئن لها القلب ويقبلها العقل ، ولا أطمع من وراء هذا سوى أن أكون قد أسهمت بجهدى المتواضع فى سبيل حياة تقدس القيم الروحية والإنسانية.

المراجـــع

١ — الكتاب المقدس (العهدين القديم والجديد)

٢ — القرآن الكريم

٣ — الملل والنحل — للشهرستانى

٤ — إظهار الحق — رحمة الله بن خليل الهندى

٥ — المسيحية فى الإسلام — الأب إبراهيم لوقا

٦ — روح الإسلام — سيد أمير على

٧ — قضية الألوهية — عبد الكريم الخطيب

٨ — عبادة الأبطال — توماس كارليل

٩ — حياة محمد — سير توماس ميور

١٠ — محمد رسول الله — آيتين دينية — ترجمة عبد الحليم محمود

١١ — الإسلام — الفريد جيوم . ترجمة . دسوقى العسكرى

١٢ — المسيح فى الأناجيل الأربعة — فتحى عثمان

الفهرست

عزيزى القارىء

يتميز وقتنا الحاضر بالمحاولات الجادة الدائبة للتقارب وتقوية الروابط بين أهـــل الأديان خاصة المسيحية والإسلام - لما بينهما من قربى ومودة وتعاطف ، وهى محاولات تهدف إلى الرجوع إلى جوهر العقيدة ، ونبذ التعصب والوقوف معاً على أرضية مشتركة يرضى عنها الجميع، وذلك للوقوف صفاً واحداً أمام موجات الإلحاد الضارية .

وهذا الكتاب مساهمة متواضعة فى هذا السبيل، إنه دعوة إلى وحدة إنسانية شاملة فى ظل دين الله ، الدين الذى جاء على ألسنة جميع الأنبياء والرسل يقرؤه المسيحى فيزداد اقتناعاً أن لنا إخوة يؤمنون بإله إبراهيم ويؤمنون بالرسالات السمارية السابقة وأن إلهنا واحد وسماءنا واحدة وأرضنا واحدة ، ويقرؤه المسلم فيذكره بما جاء به دينه من احترام للعقائد السابقة ، « وأن أقرب الناس إليه الذين قالوا إنا نصارى » ، وأرجو أن أكون قد وفقت ؟

المؤلف

الثمن ٢٥ قرشاً